قَهْوَة حَبَشِي

قَهْوَة حَبَشِي

رواية

كمال رَحيِّم

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/١٩١٦٠

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 501 – 8

قَهْوَة حَبَشِي

رواية

كمال رُحيَّم

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

رُحيَّم، كمال

قهوة حبشي: رواية/ كمال رُحيَّم.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٨ ٥٠١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٩١٦٠ / ٢٠١٩

فَقْدُ الزَّوْجةِ هو فَقْدُ الصِّغارِ للأُمِّ؛

فكلاهُمَا مُرٌّ شَدِيـدُ الوَطْـــأة..

إهـــداء...

إلى زوجتي التي كَسَرنِي رَحِيلُها..

كُلَّمـــا جِئتُكَ راجَعْـتُ الصِّـــبَا فأبَـــتْ أيَّامُـــــهُ أنْ تَرْجِـــعَا
قَـدْ يَهُـونُ العُمْـرُ إلَّا سَـاعـةً وتَهُـــونُ الأرْضُ إلَّا مَوْضِعَـــا

أحمد شوقي

1

قهوة حبشي..

منذ أن كُنَّا فوق أكتاف أمهاتنا ونحن نراها، وما من شيءٍ يحدث في البلدة إلا ويُحكى فيها، حتى الذي يجري في العِزَب والكُفُور التي حولنا، كان يأتينا خبره في ساعتها أو أقصاها اليوم التالي. فالقهوة بمدخل البلدة ويتوقف أمامها الباص الوحيد الذي يمُرُّ علينا، ناهيك عن عربات أجرة موديلات الأربعينيَّات والخمسينيَّات وكانت لا تدور بمجرد وضع المفتاح والتشغيل وإنَّما بقطعة حديد اسمها (المانِفلَّا)، غير حَمِيرٍ تُؤجَّر أو عربة كَارُّو إذا كان الركاب أسرة أو جماعة مع بعضها البعض. كانت القهوة ملقفًا لكل هذا وأشبه بالتَّكِئَة أو المَرْسَى لمن يأتي أو يذهب، وكعادة أهل الريف

الكل يطلق لسانه ويثرثر فيما يخصه أو لا يخصه.

لم تتغير هيئتها على مدار عقود ..

فالجدران مثلما بُنيت أول مرة، طوب نيِّئ ملطوس بالطينِ والقَشِّ، والسقف على ستة جذوع من النخيل، وكله ومن أوله لآخره مُعرَّش بفروع كافور وأعواد حطب ناشف على عِرْقين أو ثلاثة من الخشب. ولا طلاء إلا على الواجهة، ومكتوب بأعلاه (قهوة المعلم حبشي). ولم أمرَّ أمامها يومًا إلا وكان مذياعُها صوتُه عالٍ ويترامى في الفضاء، وكنت أتلكَّأُ عندما أسمع صوت الشيخ محمد صِدِّيق المنشاوي وأتخيل وأنا في هذه السن أن دموعه على وشك أن تنثال على خديه وهو يتلو؛ كما كان يُشجيني صوت أسمهان خاصةً عندما تغني:

أنا اللي استاهل كل اللي يجرالي ..

الغالي بعته رخيص ولا أحسبوش غالي..

لم أكن أعاني في هذا الوقت أو في دنياي أمرًا يدعوني للندم، لكنه الصوت المتألم واللحن الحزين؛ إذ كانا يقبضان على قلبي ولا أستطيع التحرُّك من مكاني حتى تفرغ أسمهان.

***

وكنا نُفاجأ أحيانًا بعباراتٍ بذيئة فوق الواجهة..

عبارات تلعن حبشي وأبا حبشي وتصل إلى (البسطويسي) ذاته جَدِّ حبشي، والكتابة بخط عاجز ساعات وساعات بخط واضح سليم، كما لو أن الذين كتبوها عيال تعلموا في المدارس، وهو ليس هنا، يمُرُّ عليها مرور الكرام وربما يتأملها برضا وهِزَّة رأسٍ مُرحِّبة، فلا مانع عنده من أن يكتب الناس دعاءً أو حكمةً أو شعارًا من تلك الشعارات التي كانت تُكتب في حق الرئيس جمال؛ فقد كُنَّا وقتها في ذروة تأميم قناة السويس.

مسكين حبشي في هذه النقطة بالذات، لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة وأهل البلدة -سامحهم الله- لم ينبهوه، تركوه على عَمَاه، ثم ما يلبث أن يظهر واحد ذو ضمير ويقول له الحقيقة، لم يكن يقولها حُبًّا فيه بل لوجه الله؛ فتشيط فيه النار ويسبُّ الذين فعلوا هذه الفعلة بألفاظٍ قبيحة، وأنه لو أمسك بواحد منهم لفلق رأسه بالعصا وجرجره في الشارع كالذبيحة، وبعد أن يهدأ كان يبدأ في مسح المكتوب بطرف كُمِّهِ أو بخِرْقَةٍ وجردل ماء.

زادت المسألة بعدها، لم يكن يمُرُّ أسبوع إلَّا ويحدث الجديد، عبارات عجيبة يبدو أن أصحابها كانوا يقصدون منها الفكاهة مع الإيذاء، وهو يدعك ويزيل بالخرقة والماء حتى باش الطلاء وبانت من تحته البطانة وقوالب الطوب.

ولم يكن بالقهوة سوى ثلاثة مقاعد من الجَرِيد، واحد وهو السليم فيها كان مخصصًا لحبشي ويجلس عليه في المدخل، والآخران موضوعان (خِلْف خلَاف) بجوار النَّصْبَة لساعة اللزوم، فهما لا يُقدمان إلا للزبائن الثُّقال أو لنسوة البيوت المسافرات؛ وكان (ضاحي) عامل القهوة إذا رأى إحداهن تحوم حول موقف السيارات وحائرة أين تجلس، تأخذه الشهامة ويحمل أحد المقعدين ويضعه لها بعيدًا عن الحركة والناس، وترتاح هي في انتظار الوسيلة التي سوف تقلُّها إلى البَنْدَر أو مصر. وفيما عدا ذلك طاولات ودِكَك في كل الأنحاء، وراديو ليل نهار على إذاعة (صوت العرب) وأعقاب سجائر تملأ الأرض؛ فلم يكن من ثقافة حبشي أو وَرَدَ على خاطره مطلقًا أن يضع مِطْفَأة فوق كل طاولة، فمن يفرغ من سيجارته يهرسها بمَدَاسِه ويركلها بعيدًا عن المَطْرَح الذي يجلس فيه.

***

لا تغيب هذه القهوة أبدًا من الذاكرة ..

ولا يغيب اليوم الذي تجمَّعنا فيه أمامها من أول الصباح، كُنَّا ستة أو سبعة أولاد تَسلَّلنا من بيوتنا وجئنا ننتظر عربة النقل القادمة من البندر وعلى ظهرها مستلزمات (الصِّيوَان). وأول ما لاحت من بعيد دَبَّت فينا الحماسة، هَلَّلنا بأعلى ما فينا ومنَّا من قفز في الهواء من شدة الفرحة وحالًا

حالًا تجهَّزنا، خلعنا المداسات ومنَّا من وضع ذيل الجلباب بين أسنانه أو عقد الجلباب حول خصره، استعدادًا للعَدْوِ وراءها عندما تنحرف يسارًا وتدخل البلدة.

فمنذ أن قالوا ليلة أمس بأن فلان الفلاني تُوفِّي إلى رحمة الله، أيقنَّا أنه لا بد من سُرَادِق وجئنا لملاقاته. وضاحي عامل القهوة عيناه علينا، وأول ما بدأنا الجري رمى المقشَّة التي يكنس بها وطار معنا. ويبدو أن المعلم حبشي فوجئ بهذا التصرف؛ ففي التفاتةٍ إلى الوراء لمحناه بفردة مَدَاس واحدة ويهرول وراءنا هو الآخر، ويزعق على ضاحي بأعلى ما فيه بأن يرجع وإلَّا فهذا آخر يوم له في القهوة. هي عشرُ خطواتٍ فقط التي أكملها بعد ذلك وانكفأ على وجهه، تكعبَل في خروف راقد على الأرض وتكوَّم فوقه والتف حوله الناس، أوقفوه بصعوبة، فما شاء الله كان في حجم فَرَس النَّهْر وحتى له نفس السِّحْنَة. وأخذ هو يتحسَّس قدمه الشمال التي انْجَزعَت ويسبُّ الدين لنفسه ولضاحي، وللناس الذين لا يرحمونه ويشخبطون على واجهة القهوة بكلام قليل الأدب لا ترضاه الجاموسة على نفسها.

لا أدري لماذا جاءت على باله هذه الكتابة وهذه الشخبطة ساعتها؟!

معذور.. كان في ساعة ضيق ولم يسيطر على انفعالاته، أخرج كل ما في جوفه من سَلْبيَّات؛ حتى إنَّه اتهم زوجته علانية بالحُمْق وعدم التمييز؛

لأنها أفسدت عليه هذا الولد بتساهلها معه ومعاملته كما لو أنَّه ابنُها. والناس تطبطب عليه وهو يُشْهدهم على ما فعل في ساعةٍ كهذه، ساعة صُبحيَّة ورزق، وأنه لو قطع عيشه الآن لا ملامةَ عليه، ويؤكد بتشويحات صارمة من يده بأنه سوف يرجع حالًا ويرمي له هدومه في الشارع أو في أية خَرَّارة. والناس يدارون ابتساماتهم ولا يصدقون كلمة واحدة مما يقول؛ تكرر هذا المشهد أمامهم عشرات المرات، فكلما كانت هناك جنازة أو قراءة قرآن في مَعْزَى أو ما شابه، يهرب منه ضاحي وتحدث هذه (الهُلِّيلَة)، وسَرْعانَ ما يتصالحان وتعود المياه إلى مجاريها، فزعيقُه وصياحُه هذا ما هو إلا (طَقّ حَنَك) ليس إلَّا.

فضاحي كان مُهمًّا بالنسبة إليه ولا يستغني عنه بتاتًا؛ هو الذي يفتح باب القهوة من أول النهار إلى ما بعد صلاة العشاء، وإن غاب عنها يومً ووقف بدلًا منه شخص آخر لم يكن الزبائن يشعرون بالراحة؛ فلسانه كان حلوًا وصنعتُه في الشاي ورَصِّ أحجار المعسِّل لا يُعلَى عليها.

وما المقابلُ الذي يتحصَّل عليه؟

لا شيء سوى اللقمة التي تجيئه من بيت حبشي، والفَرْشَة التي ينام عليها آخر الليل في ركنٍ من أركان القهوة.

وشيئًا فشيئًا انفضَّ الناس وتركوا حبشي محتاسًا، ومنهم من يقول في

نفسه: ملعون صنفك يا ضلالي يا حشَّاش، ظفر ضاحي برقبتك ورقبة أبوك!

والذي يشمت فيه: آه (يا أبو ودان) يا رَدّ السجون، منذ متى عندك قهوة ولديك صِبْيَة تتحكم فيهم!

***

ونحن لا نزال نعدو وراء عربة النقل..

كنا نعرفها، فطالما أتت بلدتنا في المآتم، وكنا نُهلِّل وراءها ومنَّا من يتعلق بها أو يحاول التسلُّق، والعمال الذين فوقها يشتموننا مرةً ويهشُّوننا مرة أو يدفعوننا بأيديهم.

ضاحي لم يكن يقوم بأعمال صبيانيَّة مثلنا، كان محترمًا ويجري بكل أدب، غير أن وجوده بيننا كان نشازًا، فليس من أعمارنا وله شاربٌ ولِحيَةٌ خفيفة. تجاوز الثلاثين وإن كانت هيئته لا توحي بذلك، فقامته قصيرة بشكلٍ لافت، أطول منا بشبر واحد، وجسده لَيِّن خفيف تستطيع أن تفرده وتثنيه مثلما تفعل مع أي منديل أو ورقة؛ فليس فيه فتفوتة لحم أو شحم زائدة، أليتُه نفسها كأنَّ لا وجود لها في تركيبة جسده، ضامرة إلى أقصى حد، كان يبدو لنا ولغيرنا كما لو أن له رأسَ إنسان، وجسده جسد سِحليَّة من السحالي التي تجري على الجدران.

طفقنا نجري نحن وهو، وأول ما وقفت العربة أمام البيت الذي تقصده أغلقنا أفواهنا جميعًا والتزمنا الأدب؛ كُنَّا نعرف الأصول، فهذا عزاءٌ والأدبُ مطلوب.

***

2

فلان الفلاني هذا الذي مات، كان أكبرَ رأسٍ في البلدة..

رجلٌ فحل، أرض وعِزْوَة وبيوت، وهذا هو المُتبَّع عند هؤلاء الناس، لا بُدَّ أن تكون ليلةُ من يموت منهم ليلة يتحاكى بها أهل البلدة شهورًا طويلة. فلم يكن يكتفون بدواويرهم وهي واسعة، أو بمُقرئِي البلدة وهم يحفظون القرآن كما أُنزل، كانوا يقولون: إن قراءَتَهم والعياذ بالله زَنّ في زَنّ ولا تُشَعْشِع في الرأس بتاتًا، يزِنُّون على وتيرةٍ واحدة كسَيْرِ المَكنَة التَّلْفَان، وأفضل مَطْرَح لهم التُّرَب والمقابر والقراءة للنسوة أيام الأعياد و(الخِمسان)، لا في السُّرَادِقات وأمام الضيوف الأغراب.

فالعزاء عند هذا الصنف من البشر لا بُدَّ أن يطيل الرقبة، سرادق

وميكرُفون وسَجَّاد يُفرش بطول وعرض المكان، أما المقرئون فمن البندَر أو من بلادٍ بعيدة، ومنهم من كان يُصمِّم على (صَيِّيت) مِمَّن كُنَّا نسمعهم في الإذاعة. في يومنا هذا أحدث أهل هذا الميت دَويًّا في البلدة كلها، ولطموا أصحاب المآتم السابقة لطمة شديدة، أتوا بالشيخين: الشعشاعي ومصطفى إسماعيل معًا.

لم تكن لنا -نحن الصغار- دراية بهذه الأمور أو نفهم فيها، الذي كان يشغلنا فقط هو كيف ينصبون السرادق وكيف يفكُّونه، والكلُوبَّات التي في أعلاه كيف يشعلونها؟

ولا تكتمل فرحتنا إلَّا إذا قام ضاحي بكل هذا، فما من مَعْزًى به سرادق -أو على الأقل أيامنا- إلَّا وكان له دورٌ في تجهيزه؛ حتى حفظه أصحاب الفِرَاشَات وكانوا يسألون عنه إذا غاب أو تأخر في القدوم.

***

أخيرًا وصلنا..

وقفت العربة وشرع العمال في تفريغ الحمولة، زنانير خشب، حِبَال، كلُوبَّات، قماش السرادق ذاته بما عليه من زخارف وآيات من القرآن الكريم، ثم أهم شيء كُنَّا ننتظره، السُّلَّم! سُلَّمٌ ليس كالسلالم الخشبية التي في بيوتنا، أطول منها بعدة أشبار، وخفيف رشيق كما الريشة، كُنَّا

معجبين به أيامها.. وعندما انتهوا من حَفْرِ عدة حُفَر في الأرض وثبتُّوا بها الزنانير، التفت صاحب الفِرَاشَة حوله، فقلنا: إنه حتمًا يبحث عن ضاحي. كان يقف بيننا فدفعناه إلى الأمام، ولو لم نفعل لما تقدم، كان خَجُولًا ونَفسُه عزيزةً.

أشار له صاحب الفِرَاشَة باندهاش:

- وواقف وسط العيال! تعالى تعالى.

وعندما تقدم خطوة إلى الأمام، رَبَّتَ على كتفه:

- جاهز؟

أومأ ضاحي برأسه بأن: نعم، فدفعه إلى الأمام دفعة خفيفة:

- طَبْ يللا يللا اطلع على السلم.

***

اختبر ضاحي السلم أولًا بهزَّةٍ من يده ثم خلع جلبابه ورماه لنا، بقي بفانلِّة نصف كُمّ أسفل الصديري، وقبل أن يبدأ أخرج من جيبه فردتَيْ أستك، وأغلق بهما فتحتَي السروال من أسفل. كُنَّا في الصيف أيامها وسراويلنا في هذا الوقت تكون قصيرة، إلى الرُّكْبة فقط لا تتعداها، ويبدو أنه اتَّخذ هذا الاحتياط وحَبَك سرواله هذه الحبكة، حتى لا يرى أحد عورته عندما يصعد عاليًا.

رَكَن السلم بعدها على أول زنارة، وشرع في الصعود..

وهذا هو المشهد الذي كُنَّا ننتظره، فساعة وهو يلعب في الهواء، يقبض على السلم بساقيه ويتنقَّل به من زنارة إلى الثانية تَنقُّلات أشبه بأنصاف الدوائر، شابكًا قماش السرادق من هذه إلى تلك ثم الثالثة في التي بعدها، بأحبالٍ يتلقَّفُها وهو في الهواء، وكل هذا دون أن يختلَّ له توازن وعروق جبهته نافرة وعيناه في أقصى حالات التركيز.

ونحن في الأسفل نتابعه برهبة، كُنَّا مبهورين بهذا الأداء، بدا لنا كما لو أنه بهلوان مِمَّن كُنَّا نراهم في الموالد الكبيرة، وليس الغلبان ضاحي الذي كان يجري معنا قبل قليل. ومع كُلِّ حركةٍ من حركاته الخطرة، كُنَّا نشهق بخوف وتأخذنا أقدامنا خطوة إلى الوراء دون أن نشعر، ومنَّا مَنْ يهمس بقلق:

- هيُقَع..

- آه والله هيقع..

ومن يلكُز بمِرْفَقه مشجعًا:

- هيقع دا إيه! دا ضاحي!

الكبار الذين كانوا معنا في الأسفل، هم الذين خيَّبوا ظنوننا. لم يُبدوا اهتمامًا به ولا بما يفعله في الهواء، وبعضهم كان يتحاشى الوقوف في الحيِّز

الذي يعمل فيه، وعيناه كل دقيقة تنظران إلى أعلى خوفًا من أن يسقط فوق رأسه. والذي زاد نفورنا منهم تغامزُهم على ساقيْه، إن جئنا للحق هما فعلًا تستحقان الغمز؛ أشبه بسيقان المعيز، وربما سيقان المعيز ألطف منهما، إلَّا أنَّ هذا كان يضايقنا، فضاحي في هذا الوقت كان بطلًا في أعيننا ولا نقبل أن يُهان.

وعندما فرغ من نصب السرادق وهبط، رَبَّتَ صاحب الفراشة على كتفه قائلًا:

– الله يفتح عليك.

وأخرج له جنيهًا من جيبه، فتردد ضاحي قائلًا:

– شوية..

ونحن الآخرون نهمس لبعضنا البعض:

– آه. شوية!

– والله شوية!

وأردف ضاحي بصوت خافت:

– أصل المعلم حبشي بيقسم معايا.

كان أحد أقارب المُتوفَّى قريبًا منا، فالتفت إلى صاحب الفراشة قائلًا:

– يا خويا زَوِّده شويه، ما انت قابض قد كده!

وأشاح باستياء:

– وإنت يا حبشي الله ينعلك، عينك فارغة وبتبُصّ على اللي في كَفّ الفقير!

فتشجع ضاحي وقال له:

– ويا ريت يا عم الحاج كمان، تخلِّي حد يصالحني عليه.

فنادى على أحد الواقفين، وقال له وهو يشير لضاحي:

– خُدُه في إيدك، وإذا السُّخام حبشي فتح بُقّه إنزل على راسه بالمداس.

لم نَنَمْ ليلتَها إلَّا بعد أن تأكَّدنا، أن ضاحي عاد إلى القهوة مثلما كان.

***

3

بعد أن انصرف الناس عن حبشي، رجع إلى القهوة..

فنصف ساعة وتمتلأ بالزبائن، القادمون من العِزَب والكفور المجاورة هم أول الحضور. يريدون إراحة الدوابّ التي أتوا على ظهورها بعد مشوارهم الطويل، يقيِّدونها في جذع شجرة خلف القهوة، ويتوقون هم أيضًا للمشروبات التي قلَّما يتذوقونها؛ يَنْسُون سَحْلَب زنجبيل أو زجاجة اسباتس أو بيبسي مثلجة، وصاحب الكيف منهم تهفو نفسه لحجر معسل أو اثنين، والذي يسأل عن جردل ماء يسقي به ركوبته. وأعيان وأصحاب أرض وزمامات يأتون بالجلابيب الكشمير فوقها العباءات، وعلى رءُوسهم عمائم زاهية بياضها أشد نصاعةً من بياض

ريش "أبو قردان"، هؤلاء بالذات لهم معاملة غير باقي الناس، لا بُدَّ من كوب ماء بجوار المشروب، وأن يُقدم على صينيَّةٍ لا أكوابٍ تُقدم باليد مثلما يفعل ضاحي مع الآخرين، وإذا اشتهوا المعسل ففي جِوَز مخصوصة لا يسمح لغيرهم باستخدامها، فهذه هي سياسة حبشي لتوقيرهم. ناهيك عن أفنديَّة المدرسة الأوَّليَّة الذين يأتون بجلابيب إفرنجيَّة وطواقٍ بيضاء، ومنهم من يطلب من ضاحي أن يتصرف له في قلم أو ورقة بيضاء، أو أن يبتاع له علبة دُخَّان أو جورنال. وتومرجيَّة الوحدة الصحية بمرايلهم البيضاء، وعساكر النقطة، فالنقطة على بُعد أمتار، وقد جعلوا من القهوة مرتعًا يرتعون فيه، وعند الانصراف إن دفعوا نصف حساب المشاريب، كان حبشي يحمد الله ويقبِّل يده "وجه وظهر".

ضاحي كان جاهزًا لكل هؤلاء الناس، ومن هنا لهناك كالدَّبُّور؛ وقوف على النَّصْبَة، مَسْح، كَنْس، تقديم طلبات، ورَصّ أحجار المعسِّل أو تسليك الجوَز المكتومة.

من سوف يقوم بكل هذا الآن؟

حبشي!

حبشي الذي يبدو كالفيل العيَّان، ولا يتقن صنعة سوى كَرْكَرَة الجوزة والنكش في سيَر الناس..

حبشي الذي أفناه المشي البَطَّال، وكل دقيقة يكُحّ يكح حتى يتأفف منه

الناس، ويَدَعُوا المَطْرَح الذي يجلس فيه..

***

أدار أخونا حبشي الراديو، فجاءته أغنية حزينة من أغاني هذا الزمن:

غريب الدار عليَّا جار زماني وظلمني..

مشيت سوَّاح مسا وصباح..

أدوَّر على اللي ضاع مني..

غريب.. غريب.. غريب الدار..

أنا اللي الدهر عاداني، وباعني واشترى فيَّا..

تمايل برأسه متجاوبًا مع الإيقاع، ثم سحب مقعده الجريد وجلس أمام القهوة..

ثلاثة أوباش يمضون أمامه الآن، ظل يرمقهم حتى توقفوا أمام (الكوبري الخربان)، كوبري قديم من أيام (السلطان حسين) ولم تعُدْ له وظيفة بعد أن شيَّدوا واحدًا بدلًا منه. ارتكن أحدهم بظهره إلى سور الكوبري، وصعد الثاني فوق الحافة مُدَلْدلًا قدميه وكذلك الثالث، وكلهم بلا طَوَاقٍ وشعرهم أشبه بفروة الخروف، لم تصله نقطةُ ماءٍ أو رغوةُ صابونٍ منذ شهور. يعرفهم: ابن عرنوس الفرارجي، وابن يونس

الطبَّال، والثالث لا يتذكر اسمه، وحتى إن تذكَّر، فمن يكون؟! قُمامَة من قمامات البلدة..

هو الآخر كان (أصْيَع) منهم في شبابه، وعندما ينظر لهم الآن ينظر باستعلاء، فهم مجرد نُكْش فراخ أو زِبْل حمام قياسًا على تاريخه القديم، فما شاء الله كان هَجَّامًا وله سمعة كالطبل في القفز على الزرائب والبيوت، وخطف كل ما تطالُه يداه؛ حَلَّة، طِسْت، عنزة، خروف، حتى الإوز والدجاج لم يكن يفلت من يده.

ضبطوه مرة وهم خارجون من صلاة الفجر يجري بدجاجة، والمسكينة تكاكي وتستغيث وتحاول القفز من بين يديه، نزلوا عليه ساعتها بالمَدَاسَات وسفَّفُوه التراب. اشتغل بعدها في الحشيش، يستدين حق (الفَرْشَة) ويقطعها أجزاءً صغيرة ويلف في ورق سيلوفان ويبيع، وكان مآله السجن ثلاث سنوات. وعندما استوفى المدة قصر نشاطه على سرقة الحمير، لماذا الحمير؟ صور له شيطانُه أنها غلبانة وتسمع الكلام، ليست في نصاحة ولا حيويَّة الدجاج، يضع عينيه على حمارة شاردة، أو من لسعة القيَّالة غفا عنها صاحبها ونام، فيسحبها وتمشي هي معه بلا ضجيج، وحتى إن قفز وجلس فوقها لا يصدر عنها أيُّ رفضٍ أو امتعاض، غير أن حظَّه السيِّئ أوقعه مرة في حمار ناصح ركَلَه ركلةً موجعة، وتجمَّع الناس ونال علقةً كأختها السابقة، شتائم ومداسات، ومن يومها أسموه (أبو ودان).

مضت ثلاثون سنةً على هذه الأحداث ولا يزالُ هذا اللَّقَبُ حيًّا إلى

اليوم، يراهُ في أعينِ الناس مع بعض الابتسامات، ويكادون ينطقون به عندما يَحتكُّ بهم أو يدخل معهم في شجار.

***

تاب الآن..

فبعد أن رزقه الله بابنته (عزيزة) لَمْ يَعُدْ يعرف الحرام، هكذا يقول..

قَعْدَات الحشيش هي إثمه الوحيد، وهو أيضًا الذي يقول..

ليس في القهوة، في بيوتٍ مخصوصة وبِرَهانات، فكل ليلة خميس يلتقي هو ورفاقه، ومن يأتي على حجر الحشيش في نَفَس واحد حسابه على الجميع وفوقه خمسة جنيهات، اتفاق (چنتلمان) اتفقوا عليه فيما بينهم.

لا يبدءُون به، يعرفون النتيجة مقدمًا، استقرُّوا على أنه آخر واحد يمسك غابة الجوزة؛ خوفًا من أن يكسبهم بالضربة القاضية من أول دورة، وتضيع عليهم بهجة الليلة.

يبدءُون هم..

تدور عليهم الجوزة والنتيجة مثلما توقعوا، لا ينجح أحد، يرسبون كلهم في الاختبار، فمن عليه الدور منهم لا يستطيع التكملة ويدخل في نَوْبة سُعال مؤذية ويرمي الجوزة من يده وعيناه تدمعان، وعندما يحلُّ عليه الدور يعمُّ الصمت ويرمقونه بتقدير، ويتنحنح هو عِدَّة نحنحات

لافظًا الشوائب العالقة بمجاريه الهوائيَّة، ثم يسحب ساقيه المفرودتين ويطويهما أسفل منه.. طقس تعوَّد عليه.. وتلتقط شفتاه الغابة ويبدأ في سَحْبِ الأنفاس، أنفاس طويلة ووراء بعضها البعض، والدُّخَّان دفعات دفعات تغطيه هو والجالسين.

يدخل مع الغابة معركة حياة أو موت، فسُمعتُه على المَحكِّ، يزلزلها حتى تكاد تنخلع من موضعها والماء الساكن في بطن الجوزة تصدُر عنه كَرْكَرات عنيـفة. يظـلُّ على هذا الحال حتى يبيد الحجر عن آخره وتتخلف عنه لسعةَ نارٍ سَرْعانَ ما تنطفئ، ويسمع هو والجالسون الطقطقة التي في النهايات.

يروقُ لهم هذا التمكُّن ويطمعون في المزيد، فيحاولون إقناعه وإن تبغدد عليهم يستفزُّونه، يقولون له: إن هذه هي آخر قدرته، حجر واحد لا غير، وأنه ليس في كفاءة المعلم فُلَان صاحب الغُرْزَة التي بمدخل بلدة (كوم السمن)، فهو يشفط الثلاثة أو الأربعة أحجار وراء بعضها البعض ثم يَعْوِج للناس طاقيَّته، ولا الشيخ عِلَّان المقرئ الكفيف، فالرجل وبعون الله يلسع الخمسة أحجار ويطلب المزيد. يقولون ذلك وبعضهم لا يقصد سوى الفُرْجة والتسلية، والبعض جاد ونيَّاته سليمة، ينظر للأمر من منطق مختلف، يريد أن يتعلم ويستفيد من هذا الأستاذ.

ويقبل حبشي التحدِّي، فيرصُّون له حجرًا آخر وثالثًا ورابعًا، والشرط هو الشرط، أن يأتيَ على الحَجرِ في نَفَسٍ واحدٍ ولكُلِّ حجرٍ نفس المكافأة، ويواصل هو كالمجنون..

لم تكن تطرأ عليه أية تغيرات إلا مع الحجر الخامس فما فوق، تنثال حَبَّات العرق على جبهته وخلف أذنيه، وتجحظ عيناه تتسعان قليلًا عن وضعهما المعتاد وتدخلان في طورٍ من التحديق، ولا تعرف إن كان لا يزال واعيًا ويحدق في الجالسين، أم أنه تحديق ابن توهان وأنه في مكان آخر غير الذي يجلس فيه، وسُحُب دخان تأخذه معها وتحتويه. وشيئًا فشيئًا يتأكد الخيار الثاني ويهيم هو في السَّطَل والتَّوَهان، يخالُ نفسَه في صورٍ وأوضاعٍ ممتعة؛ فكما لو أنه يمتطي فرسةً مُسرَجةً بالورود والخلق كلهم وراءه، ونفافيخ وصبيان وبنات ورجل في فمه مزمار وآخر يدق على الطبلة، ونسوة يضعن الأحمر والأخضر ويتمايلن أمامه بدلال، وهو حائر بينهن ولا يعرف بأيِّهنَّ يبدأ!

وتحذره ذرة عقلٍ لا تزالُ فيه بأن يتوقف، غير أنه لا يستجيب، تظلُّ رئتاه تعملان بأقصى طاقتهما ولا تغادر الغابة فمه، نَهمُه يزداد وتبدو له الدنيا التي يسبح فيها أحلى من أية دنيا غيرها. ويُشفقون هم عليه، يخافون أن يموت منهم، يدفعون الهواء نحو وجهه بأكُفِّهم أو بورقة جورنال، ويسحبون الجوزة منه بالقوة إذا رفض وهم يُهلِّلون منبهرين بهذا الأداء الجبَّار.

ومن فرط النعنشة والانبساط يأخذونه في زفَّةٍ إلى بيته، سُمِّيت أيامها بـ(زفة حبشي)، جَلبَة وصياح وقهقهة وألفاظ مساطيل. لم يُقلعوا عن هذه العادة إلَّا بعد أن وصل الخبر للعمدة، فأعد لهم كمينًا ونزل على ظهورهم

بالخيزرانات. ورغم توقُّفهم، وكان هذا من زمن طويل، فإن هذه الزَّفَّة لا تزال باقيةً في ذاكرة البلدة، وتُحكى بين الحين والحين على المصاطب وأمام الدكاكين. ليست وحدها التي تُحكى، غيرها وغيرها، فسجِلُّ حبشي عند الناس مليءٌ بالسلبيَّات.

***

4

تَطلَّع حبشي إلى واجهة القهوة..

عادةٌ تعوَّد عليها، لا يمُرُّ يوم إلا ويبصُّ هذه البصَّة، يلاحق أيّ جديد يُكتب في حقه، بعد آخر بهدلة بهدلوها له وكتبوا كلامًا يتجاوز الحد.

كانت من حوالي أربعة أيام وساعة صُبْحيَّة مثل هذه، كان مغروزًا يومها يدًا بيد مع ضاحي، بعد أن هاصت القهوة وتعالت النداءات، وفي عز هذا الزحام فوجئ بالصُّول (خير) بلوكامين النقطة، واقفًا عند المدخل على غير عادته ويشيرُ له فجفَّف يديه المبلولتين وأسرع إليه. على الفور فهم، من نظرة حضرة الصول إلى الواجهة أدرك أنهم قَلَّوا أدبهم من

جديد، وعندما استحلفه بالله أن يقرأ له المكتوب انكسف الرجل:

- سامحني يا معلم، كلام عيب وما يتنطقش باللسان.

وعندما بدا الألم على وجه حبشي، رَبَّتَ الصول خير عليه مواسيًا:

- إرمي إرمي ورا ضهرك، تلاقيه عَيِّل فسدان.

- أرمي ورا ضهري! بالساهل كده..

وطفق يسأل نفسه..

منذ أن قلت: يا هادي يا رَبّ وفتحت هذه المخروبة وهم لا يتوقفون عن أذيَّتي، ابتعدت عن (اللَّبَش) والشقاوة، ابتعدت من نفسي، برغبتي وخُطري، لا بنصيحةِ ناصحٍ أو شيخٍ بعمامةٍ وكاكولة.. طمعت في فرج الله والرزق الحلال، ولك الحمد والشكر يا رب، رحمتني وأكرمتني ولعلَّك سامحتني.. الناس! الناس هم مشكلتي في هذه الحياة! لا الكبير فيهم ولا حتى الصغير احترمني يومًا أو كانت في قلبه فَتفُوتَة رحمة!

آه لو أعرف هذا الجبان الذي يضعُني في رأسه؟

ومن قال إنه واحد فقط! قطعًا عشرة، عشرون، أو ربَّما أهل البلدة جميعًا يتناوبون الكتابة، فالخَطُّ الذي يكتبون به مثلما أفهمني الصول خير يختلف في كل مرة عن المرة التي سبقته.

وأنت يا ضاحي يا ناكر الجميل..

جئتني حافيًا ضائعًا وأنا الذي أكرمتُك، وفَّرت لك الطعام والمأوى وعلَّمتك حِرْفةً تأكل منها عيشًا.. وتتركني اليوم وأنا في عِزِّ احتياجي إليك، تدعني وتجري مع العيال يا عديم المروءة!

حتى الغلابة الحُثَالة الذين على باب الله، الدَّوابّ أرحم منهم! فكلما طلبت منهم المساعدة يهزون أكتافهم، كلها ثلاث أو أربع ساعات ويعود ضاحي، ومع ذلك يتهرَّبون.. لُقمة عيش بالحلال، ويكون الواحد منهم سرواله مقطوعًا ولا يملك حَقّ علبة الدخان ويشيحُ بيده، والداهية أنه يشيحُ بغضبٍ كما لو أنه مُستهجنٌ ما يُقال له، وإذا قالوا يقولون:

- مَعْلِش، ورايا أشغال.

- لا مؤاخذة يا عَمّ حبشي، أنا مستهوي ورايح للحكيم.

ومَنْ يُسَأْسِئ ويدخل في قلة الأدب:

- إيه إيه! أنا اشتغل عندك!

- وسَّع وسَّع كده، وسيبني في حالي!

ويكون هذا الذي يُسأسئ ويقل أدبه عليَّ، حافيًا ورائحته كرائحة المراحيض..

فما بال هؤلاء الناس!

***

الأشكال الشمال هي وحدها التي تهبُّ لنجدتي..

غير أني لن أُلدغ مرةً ثانية، لن أستعين بهم ولا بغيرهم ولو أُغلقت القهوة هذا اليوم، درس وتعلَّمتُه، فالأوباش الثلاثة الذين رأيتُهم قبل قليل لم يبارحوا أماكنهم بعد، ومع ذلك لم أُنادِ على أحدٍ منهم.

فعلتُها من قبل وكانت النتائج وخيمة، طلبت العون من ابن عرنوس، من هذا المعتوه أبو أذن مخرومة كالحريم، فماذا فعل؟

نصف ساعة وربَّما أقل، ولمح أحدَ رفاقهِ يتسكَّعُ أمام القهوة، فأزاح ما في يده قائلًا:

– أنا خلاص استكفيت.

– استكفيت!

– أيوه استكفيت، غريبة دي..!

– دا انت يا دوب رَصِّيت كرسي معسل للراجل أبو لاسة.

لم يأبَهْ بما أقول ورمقني بنصفِ عينٍ طالبًا ثلاثةَ جنيهات، وعندما

رفضت وتمسكت بالاتفاق الذي بيننا، أطلق عليَّ لسانه وعَفَقنِي من قَبَّة الجلباب، زَمَّ القبَّة حول رقبتي زَمَّةً عنيفة، بدا كما لو أنه ينوي الإجهاز عليَّ. ولِمَ لا؟ عَيِّل طائش ويفعلها ويفعل (أبوها)، ألَا تحدث المصائب والجنايات من مناوشات كهذه. أعطيته الثلاثة هبابات، اشتريت نفسي بدلًا من الإهانة والبهدلة، وليت المسألة إلى هنا وانتهت؛ اكتشفت بعدها أن هذا الصعلوك لَطَش نصف علبة الشاي وعشرة بواكي معسل.

عيال سَفلَة لا تعرف أقدارَ الناس، آباؤهم هم الذين يعرفونني جيدًا، عاشروني زمنًا قبل ولادة هؤلاء المفاعيص، وطالما عملوا لي ألف حساب، واسترضوني خوفًا من أن أدخلَ معهم في عراكٍ أو أقتحم عليهم بيوتهم بعصاتى..

لكن أين هم الآن؟ الذي شاخ والذي مات والذي تكسَّح ولم يعُدْ يخرج من بيته، وخلَّفوا ذريةً تجهل مَنْ هو حبشي! وأني كنت سبعًا من سباع الليل.

فهل بعد أن تقاعدت عن الإجرام، أُهان على هذا النحو!

حتى في سكني وداري وفَرْشَتي، لست محظوظًا..

امرأتي (أُمّ الخير) هي الأخرى بلوة من البلاوي، لا مال ولا جمال وسِحْنة

كسحنة البغال، وفوق كل هذا أرضٌ بور، عشرون سنة ولم تُنْجب لي سوى عزيزة.. لو كان لي صبيانٌ، لصاروا الآن رجالًا ووقفوا إلى جواري.

***

5

ضاحي هو من قلَّب عليه المواجع..

آه لو يعرف سبب غيابه المُتكرِّر وتعلُّقه بالمعازي والناس التي تموت، فما إن يسمعْ بأن أحدًا فارَق الحياة حتى يتبدَّل حالُه، ويفلت من القهوة ولو قيَّدوه بسلسلة.

ومن أول العزاء وإلى أن يفرغ المقرئ، وهو يحمل صواني القهوة وقُلَل الماء ويطوف بها على دِكَك المُعزِّين. الفقراء هم الذين يرحبون به، هيئتُه قريبة من هيئتهم ويخدمهم لله في لله، لا يتحصَّل منهم لا على تعريفة ولا قرش، وإن ضغطوا عليه ودسُّوا شيئًا في سيَّالتِه كان يعتبرها إهانة.

عيبه الوحيد حسبما يقولون، أنه أحيانًا تأخذُه الجلالة أثناء تلاوة

القرآن، ويفاجئون به وعيناه تدمعان، وإذا زادت الوطأةُ عليه لم يكن يتحمَّل، يضع صينيَّة القهوة أو قُلَّة الماء جانبًا ويجلس واضعًا رأسه بين يديه ويبدأ في النَّهْنَهة. وتسري الهمهمة بين المُعزِّين، يُبدون استغرابهم فاليت لا هو أُمُّه ولا أبوه ولا تربطه به قرابة ولا معرفة، وعندما يفشلون في السيطرة عليه كان المقرئ يتنحنح بالخمس والست مرات ويشير بيده مُتبرِّمًا، ومنهم من كان يضيق صدرُه ويتوقف كليةً عن التلاوة.

مرة بعد مرة لَمْ يَعُدْ يبالون بتصرُّفاته، أَلِفُوها وقبلوه بالعيب الذي فيه، الذين يَتلُون القرآن هم الذين كانوا لا يرتاحون لوجوده ويحذرون منه قبل أن يبدءُوا.

الأغنياء أيضًا كانوا يأنفون منه ومن الجلابيب التي يرتديها، تؤذي عيونهم، منحولة في أكثر من موضع أو بها مَزْق (ضَبَّة ومِفْتاح) من عند الكتف أو أسفل الباط. وإلَّا رائحته، يقولون: إنها كرائحة تِفْل الشاي الممزوح بالعرق وتلازمه أينما حلَّ، وحتى بعد ذهابه تبقى فترةً في الجو. يشعرون بالحرج من وجوده أمام نظرائهم القادمين من البلاد المجاورة، كما أن لهم سفرجيَّة بقفاطين بيضاء يأتون لهم خصيصًا من البندر مع مُتعهدِّي الفِرَاشة، وليسوا بحاجة لأية خدمات من هذا الإنسان، غير أنه كان يصرُّ على البقاء، يجلس مع أمثاله المُهمَّشين خلف السرادق، ويظلُّ يُنصت للقرآن حتى يختم المقرئ.

***

عندما تُثار هذه الأحاديث في القهوة، كان المعلم حبشي يشارك فيها هو الآخر..

ويقول للزبائن الذين فتحوا هذه السيرة: وليس هذا فقط، فأنا أدرَى به منكم وأفعاله هذه ليست بنت اليوم، فمنذ أن كان عَيِّلًا عندي في القهوة وهو لا يدَعُ جنازةً تمرُّ إلَّا وخرج لها، ويظل رافعًا إصبعه في الهواء حتى تمضي ثم يعود مهمومًا، يأخذ وقتًا بعدها حتى يستعيد نشاطه ويلبِّي طلبات الزبائن. وبعد أن كبُرَ هذا التعيس لَمْ يَعُدْ يكتفي برفع إصبعه، أصبح يدَعُني ويدَعُ القهوة ويندسُّ في الجنازات، أُفاجَأ به ماشيًا معهم، وألحق به وأزغُده زغداتٍ خفيفةً كي يرجع وهو لا يأبَه.

يضحك حبشي بعدها ثم يقول: كان يزغُدني هو الآخر، أي والله! يردُّ الزَّغْدةَ بأختها كي أبتعد عنه، ويزاحم يزاحم ويخترق الصفوف متجهًا صوب من يحملون الميت، والداهية أنه كان يناكفهم ويدفعهم بمِرْفَقه حتى يُخْلُوا له ذراعًا من أذرعة النعش، وعندما يُمكِّنونه يقبض عليها بيدٍ من حديد، لا يتركها إلا أمام التُّرْبَة ويعود لي آخر النهار منهكًا والنكدُ يملأ وجهه، وما النتيجة؟ يُضيِّع عليَّ وعلى القهوة يومًا بحاله!

كنتُ ساعتَها ألقاه بالخيزرانة، مَهْريًّا من الغيظ وأقل شيء أفعله! أنزل بها على ظهره أو أجري وراءه بها في الشارع، تعبت.. تبهدلت والله! وأخيرًا قلت: أمري إلى الله، وتركتُه يفعل كل الذي في رأسه.

***

لم يقتصر الأمر على المَعَازِي والجِنَازات فقط..

أيام المواسم والأعياد أيضًا، فالنسوة اللائي كُنَّ يذهبن لزيارة موتاهن كُنَّ يجدنه قد سبقهن إلى هناك، يقفز في أي كَارُّو متجهة إلى المقابر أو يقطع المسافة على قدميه رغم طولها.

تقول النسوة: إنه يظل جالسًا أمام تُرْبة قديمة لا يجيئها أحدٌ من الزوار، تربة البلتاجي، رجل على باب الله كان غريبًا عن البلدة وأصله من دمنهور، وعندما مات دفنته امرأته وأولاده وغادروا من ثلاثين سنة، ولم يكن ضاحي يعرفه أو يعرف أحدًا من أهله، سمع بهم فقط.

تربة مهجورة هناك في آخر صف، ومن أول ما يصل يضع فوق الشاهد الذي بأعلاها أوراق الخوص التي أتى بها، ويتربَّع أمامها واضعًا يده على خده.

النسوة أغلبهن يعرفْنَه ولم يكُنَّ يخجلن منه، أزواجهن كل يوم عنده في القهوة ويحكون عن غُلبه وظروفه الصعبة، وكانوا يأتون به أحيانًا إلى بيوتهم يأكلُ لُقمةً أو يعطونه من ثيابهم.

تقترب منه النسوة ويسألنه: لماذا هذه التُّرْبةُ بالذات؟

ويحتار هو في الإجابة، فالمفروض أن يفهمنها من تلقاء أنفسهن، إذ لم يكُنْ يتجرَّأ على الجلوس أمام تربة لها أصحاب في البلدة، ستكون مُلْفتةً ويعتبرها أصحابها تطفلًا منه، فاختار تربة هذا الرجل الغريب يتذكر

أحبابًا له رحلوا ويُخرج طاقة الحزن التي تؤلمه.

أما الفضوليَّات منهن فكُنَّ يضغطن عليه، ويسألنه: لماذا يأتي أساسًا وهو غريب عن البلدة وليس له ميتٌ يرقد هنا؟ والتي تتخابث ظنًّا منها أنها سوف تُجَرْجرُه في الكلام، والتي تضحكُ في سِرِّها أو تشيح بكَفِّها متعجبة.

كان يرفع عينيه إليهن بأدبٍ ويظلُّ ساكتًا، وإذا زدن في الإلحاح تفرُّ منه دمعة، فيرأفن بحاله ويقدمن له ما تبقَّى معهن من بلح وقُرَص ومنِين. يلوك شيئًا منها في فمه ويضع الباقي في حِجْرِه، ويتلفَّت على واحد من هلافيت المقرئين الذين يغافلون الناس ويقرءُون القرآن (كَرّ. كَرّ)، ودقيقة فالثانية ويقولون: صدق الله العظيم، الفاتحة الفاتحة.

يشير لواحد منهم فيأتي مُتشكِّكًا فيما سوف يجنيه من هذا الجربوع، فيعطيه ضاحي كل ما في حجره ويقول له باستعطاف: اقرأ هنا ولو سورة واحدة.

يكتفى الرجل بسورة (قُلْ هُوَ اللهُ أحَد) ويشرع في النهوض، فيستوقفه ضاحي بمسكنة طامعًا في قراءة سورة ثانية، غير أن الفِقِي الجبان يلكُزُه باستخفافٍ وينهض كالصاروخ وعيناهُ تبحثَّان عن زبونٍ جديدٍ يشير له.

وتمضى أمام ضاحي امرأة عجوزٌ وهو لا يزالُ جالسًا، تقف وتخاطبه برفق:

– مالك يا ضاحى! يللا يللا ياحبيبي، قوم شوف أكل عيشك واستعيذ بالله..

وبعد أن تغادره يلحق بها سربٌ آخر من النسوة ويسألنها عنه، فتقول:

– والله مانا عارفة! كل ما آجي هنا ألاقيه قُدَّامي، ويركن جنب التُّرْبة دي وهات يا عياط.

وتتمتم في سِرِّها: أحوال! واللي يعيش ياما يشوف..

***

6

فهذه هي أحواله منذ أن رأيناه..

لا علاقةَ له بفرحٍ أو سرور بل ويتحاشى الأماكن التي تُعقد فيها، غير أن للضرورة أحكامًا، فقد كانوا يستدعونه كلما جاء جهاز بنت من البنات، البنات الغلابة اللائي يأتي جهازهن على عربات الكَارُّو أو فوق الجِمال، وليس بنات الأكابر اللائي يفرشن بيوتهن من مصر أو دمياط.

لا أعرف مَنْ أفهمهم أنه خبيرٌ في نقل فرش العرائس، ربما حدث ذلك مصادفةً وأثبت جدارته، فثبت في ذاكرة الناس أنهم إذا أرادوا السلامة لأية قطعة موبيليا بها (ضَلْفة) من الزجاج وللتسريحة بالذات، فعليهم بضاحي.

وقد شهدت ذلك بنفسي..

فمرةً كنت أتسكَّعُ في أحد الشوارع، وأحسست بجَلَبةٍ قادمةٍ من بعيد. عربة كَارُّو فوق ظهرها فَرْش عروسة مُغطًّى بورق جرائد وملفوفٌ بالحِبال، ووالد العروس بلاسة وشارب كثيف ويدلُّ السائق على الطريق، وزَفَّة من أربعين نفرًا على الأقل يهللون على الأقدام، نسوة وعيال ورجال، وضعف هذا العدد تقريبًا ينتظر على رأس الحارة التي يقطن بها العريس.

وقف البغل الذي يجر الكَارُّو على أول الحارة رافضًا الدخول، لا يستطيع، الحارة عرضها عشرة أشبار ولا تتحمل الكَارُّو، أقصاها جاموسة تسير، ومع ذلك يحاولون. والد العريس أفتى بأنه ممكن والدنيا بَرَاح، وأهل العروس يعرفون أنه غشيم غير أنهم لا يودُّون الدخول معه في جدالٍ من أول يوم، والذي ينخُس البغلَ في بطنه ليعطيهم أقصى ما عنده، أو يشدُّه من اللِّجام، وخمسة أو ستة يساندون البغل ويدفعون العربة من الخلف وطبعًا يفشلون. ويحتجُّ عربجي الكَارُّو، يشيح بعصاه بغضبٍ فالرحمةُ واجبةٌ والبغلُ من دمٍ ولحمٍ مثلهم، أصحاب البيوت التي بمدخل الحارة أيضًا لا يعجبهم الحال، يبدو الاستياء على وجوههم ويشيرون إلى الخرابيش التي أحدثها عريش الكَارُّو بالجدران، فتتوقف المحاولات ويرجعون بالكَارُّو إلى الوراء ويشرعون في إنزال الجهاز.

ويبدو أن والد العروس شعر بأن الأمر سوف يخرج من يده؛ فأشار للجميع بأن يكفُّوا عن الافتاءات ويدَعُونه يتصرف حسبما يرى، فالفرش

فرش ابنته وهو وحده المسئُول، ومعه حَقٌّ فقد دفع دَمَ قلبهِ في الجهاز وأية تلفيَّات تحدث لن تُستبدل إلا بالسَّلَف والدَّيْن.

***

بَدءُوا بالدولاب..

عَرُّوه أولًا من ورق الجرائد ليراه الناس، اقتراح اقترحته أُمُّ العروس ولم يمانع الأب، ووقفت هي مزهوَّةً والنسوة تنهال بالزغاريد، وبعد أن عاد الهدوء تأمل هو الدولاب ورأى أنه لا مشكلةَ فيه، خشبه جامد، وليست به حِليةً ولا مرآة ولا أي شيء قابل للكسر. وبإشارة منه تقدم اثنان من أولاده ومعهما رجلان من أقرب المقربين، شمَّر كُلٌّ منهم كُمَّ جلبابه وقفزوا فوق الكَارُّو، أنزلوه بصعوبة ودخلوا به إلى جوف الحارة حيث بيت العريس. وبعد أن أتمُّوا المَهمَّة بنجاح، قام آخرون بحمل ما تبقَّى من فرش، الصحَّارة، السرير، الألحفة والمُخدَّات، الحِلَل والأطباق، أما ملابس العروس والأكواب والأشياء الخفيفة وكل ما يُخشى عليه فحملته أُمُّ العروس وبناتها فوق رءُوسهن.

لم يتبقَّ سوى التسريحة..

أجزاؤها العلويَّة خشبها ضعيف، ومرآتُها الكبيرة تهتزُّ مع أقل حركة..

يقف والد العروس أمامها ساهمًا، نَقْلُها مسألة ليست هينة، وإذا حملها

أيُّ غشيم من الواقفين سوف يهوي بها وتصبح المرآة خمسين قطعة، وتسريحة أية عروس بالذات حسبة مختلفة، فالخسارة فيها ليست خسارة فلوس والعوض على الله، بل فألٌ سيِّئٌ للزيجة كلها وقيلٌ وقالٌ بين النسوة!

لم يطُلْ به التفكير، قفز ضاحي على الفور إلى ذاكرته فسأل عنه، وتجاوب معه أحد الواقفين:

– أي والله! هو دا وقته.

ومن شارك من أهل العريس:

– أنا لسَّه شايفه يدوب، بيشتري شاي وسكر من دُكَّانة الشيخ سطوحي.

– الشيخ سطوحي!

قالها والد العروس بإحباطٍ وطفق يتلو بعض الأدعية في سِرَّه، والذين حوله يتبسَّمُون.

ودقائق ورجعوا بضاحي..

بنظرة واحدة وزن التسريحة وفهم المطلوب، ثم خلع جلبابه وألقاه فوق سطح الكَارُّو وشرع في تحسُّس فواصل المرآة، أحد المسامير كان بارزًا بعض الشيء، طفق يعالجه بباطن إصبعه الكبيرة حتى ثبَّته في موضعه، ووالد العروس يُبدِي رضاءه بما يفعل. طلب منه ضاحي بعدها أن يكلف اثنين من الشطار أصحاب المفهومية بالصعود فوق الكَارُّو ووضع التسريحة فوق

كتفه، هذا أولًا وثانيًا أن يوسِّعوا له الطريق ولا يقترب منه أحدٌ وهو يسير، إضافةً إلى عَيِّل من العيال النبيهة يتقدمه بعدة خطوات ويشير له على البيت المطلوب، ووالد العروس يزداد إعجابه بضاحي وبالخُطَّة التي وضعها، نفَّذَ كلامه بالحرف، صاح في الواقفين بأن يرجعوا إلى الوراء، وبتوجيهاتٍ صارمةٍ منه تم تنفيذ التعليمات.

وبدأ الموكب..

ضاحي عروق رقبته نافرة وقدماه تدبَّان بخطواتٍ مدروسة، ووالد العروس رقبته تتسحَّب منه إلى الأمام ويرمقه بقلقٍ غير أنه ظلَّ ساكتًا، والعَيِّل الذي يسبق ضاحي ويرشده كل دقيقة ينظر وراءه ليتأكَّد أنهما يسيران على نفس الخطوة، أما باقي الجمهور ففي الخلف وفيما يشبه الطابور حتى غُصَّت بهم الحارة، ويبدو أنه خُيِّل لشقيقَي العروس أن التسريحة مالت خفيفًا إلى اليسار، وعلى سبيل الاحتياط تقدما وأياديهما متأهبة للحاق بها إذا هوت من ضاحي لا قدَّر الله، وشعر هو بهما فدار بعُنُقه متبرمًا، ولاحظ أبوهما فصاح فيهما بغضب:

– ورا. ورا. هو عارف بيعمل إيه.

ولما توانى أحدهما، زغده أبوه في جنبه:

– بقولَّك ورا، إنت مُخَّك تخين.

وأول ما أكمل ضاحي المَهمَّة ضجت الحارة بالزغاريد، وأخرج له

والد العروس كُلَّ الفَكَّة التي معه غير أنه رفض، خطف جلبابه وجرى إلى القهوة فسأله حبشي:

- يعني اتأخرت!

- يدوب.

- وقبضت كام؟

- ولا ملِّيم.

- يا فرحتي! وعَمَال تجري وتتحنجل أول ما جالك المرسال.

- ثواب يا عم حبشي، ثواب.

- ثواب! أُمَّال يعني في نصب الصواوين بتقبض بالجنيه والاتنين؟!

- دي ناس مرتاحة، إنما دا راجل على قَدّ حاله.

- كدَّاب يا وسخ، تعالى هنا قُدَّامي لما أفتِّشك.

***

7

عادةً ما تخفُّ الرِّجْل عن القهوة بعد صلاة العشاء..

وإن كانت تبقى ساهرةً بعد ذلك ساعةً أو ساعة ونصف على الأقل، ثم يطفئ حبشي الكلوب المُتدلِّي من السقف ويعود إلى بيته، ويتناول ضاحي عشاءه ويتمدَّد بجوار النَّصْبَة حتى الصباح.

لا تهدأ الحركة في القهوة وحدها بل وعلى الطريق العمومي كله، فعليه كل مرافق البلدة؛ نقطة الشرطة، الوحدة الصحية، الجمعية الزراعية، وقد أغلقت أبوابها جميعًا فيما عدا النقطة، كما أن هذا الطريق أيضًا هو الرابط الوحيد بين البلدة وحقول الزرع المترامية حولها، ومن بعد المغرب بعد عودة الفلاحين إلى بيوتهم، يموت تمامًا ولا تسمع فيه صوتًا أو ترى حركةً إلَّا كُلَّ حينٍ ومين.

فالمشهد عليه قبل ساعتين، كما لو أنه يوم الحشر..

أرتالٌ أرتال من الجِمال والأبقار والجواميس، في طريقها إلى البيوت بعد يوم عمل بدأ من البكور. أغلب هذه الدَّوابِّ يعرف الأصول ولا يُحدث جَلبَةً سوى الجلبة المعتادة، ومنها من هو روحه في أنفه ولا يكفُّ عن الغُثَاء أو النعير، أو عديم الأدب ولا يتورع عن الرَّكْل أو النَّطْح لأقل سبب، وحمير غلبانة تلهث بأحمالها ووراءها عيال تلسعها بعصِيٍّ رفيعة، وهي صابرة لا ترد الإساءة. ورجال أبدانهم متعبة ويجرجرون أقدامهم بصعوبة، لكن عيونهم يَقِظَة لحركة الطريق وما في مَعيَّتهم من دَوابَّ وأولاد. وعيالٌ لا تكفُّ عن المِزاح أو الشِّجار، ووكزات من الآباء غير الشتائم والوعيد بأن ليلتهم هذه ستكون ليلة سوداء إن لم يكفُّوا وينتبهوا إلى الدواب التي يسحبونها، وصبايا أحلى من بعضهن البعض تمشي بأدب، وعفار وضجيج ونداءات..

انتهى كل هذا الآن، إلا من توابع قليلة..

رجل يجرجر معزته من أذنها لفعلةٍ فعلتها فيه، عجوزٍ تتلفَّت على إوزَّةٍ أو دجاجةٍ تاهت منها، أو من سرقه الوقت هو وجاموسته وحمارته ويجرى بهما إلى البيت. وقُبالَة القهوة كان الكلوب مُضاءً على باب النقطة، وحركة وأضواء تلوح من الشبابيك، وعلى بُعد أمتارٍ من الباب عسكريَّان من عساكر السواري، كل منهما يمسك بلجام فَرَسَته، وفَرَسٌ يتململ في وقفته ويلوك حديدة اللجام بأسنانه، فرس الضابط، فالكل في انتظار

قدومه إليهم، فقد حان ميعاد الدَّوريَّة الليليَّة..

أما القهوةُ فكان مذياعُها عاليًا في هذا السكون، وعبدالمُطلَّب يصدح بصوته القوي الأخَّاذ:

تسلم إيدين اللي اشترى..

الدبلتين والإسورة..

تسلم.. تسلم..

آه تسلم إيدين اللي اشتري.. آه..

ولم يبقَ بها سوى أربعة زبائن، أكواب الشاي أمامهم وقد فرغ ثلثاها، والمعلم حبشي يرمقهم بضَجَر، وضاحي بعد أن هَدَّه التعب، تقرفص فوق الدِّكَّة المتاخمة للباب يغفو دقيقتين ويصحو دقيقة.

لم يخرج من غفواته هذه، إلَّا بعد أن لمحت عيناه خُيالات تستند إلى ما يشبه العِصِيَّ وتعبُر الطريق على مَهلٍ، ووراءها كلبٌ يتبعها على نفس الخطوة. عرفهم. أصحابه (أبو سِنَّة) و(حافظ) و(جاد)، ثلاثة عواجيز من أقل هلافيت البلدة شأنًا، أنصَحُ واحد فيهم هو أبو سِنَّة. اسمه الحقيقي (خليل)، وقد أطلق الناس عليه هذا الاسم على سبيل الاستخفاف، أو ربما إشارة إلى السِّنَّة الوحيدة التي في فمه.

لم تكن ملامحهم ظاهرة في هذه الظُّلمَة حتى يعرفهم ضاحي بسهولة،

الكلب هو الذي دَلَّه عليهم. كلب أبيض في أسود شبَط فيهم منذ مدة ولا يفارقهم ليلًا أو نهارًا، تِلِم ونظره ضعيف، يتبعهم بحاسَّةِ الشَّمِّ ويريد مشاركتهم والتصعلك معهم. ضجروا منه وكثيرًا ما هَشُّوه أو ضربوه بأقحاف الجريد التي يتعكزون عليها في سيرهم، ولا فائدة، كان يهرب وبعد أن يهدءوا يلحق بهم. قَبِلوا به أخيرًا بعد أن دافع عنهم مرةً وزامَ في وجه عيال عابثين يطاردونهم؛ غير أنهم لم يعطوه ثقتهم كاملة، وكانوا يحتاطون منه، فعيناه دائمًا على بقايا الطعام التي يحتفظون بها في جيوبهم، قرص طعمية، لقمة خبز، فتفوتة لحم، حفنة أرز ملفوفة في خِرْقَة أو قرطاس وموضوعة في السيَّالة، وكل ما كانوا يجمعونه من أكل في تجوالهم.

على مسافة من القهوة تربَّع الثلاثةُ فوق الأرض وعصيُّهم في حجورهم، لبثوا في أماكنهم ينتظرون، لا يستطيعون الاقتراب من بابها والمعلم حبشي لا يزال فيها، يطردهم كلما حاولوا الدخول أو حتى أطلوا برءُوسهم. ليس مُهمًّا عندهم أن يشتمهم، فكل الناس تشتمهم، شيء تعودوا عليه، لوَّح في وجوههم مرة بالخيزرانة إلا أنهم لم يأبهوا ودلفوا داخلين، ففوجئوا بأنه لا يُهوِّش ولا يمزح، نزل بها فوق ظهورهم وأكتافهم، ومن يومها تعلموا درسًا: ألَّا يدخلوا القهوة إلا بعد أن يغور حبشي منها، حتى الكلب وعى الدرس وفهمه مثلهم فقد نال ضربة هو الآخر مثلما انضربوا.

دقائق وهمدوا تمامًا، أحدهم غربت عيناه ومال برأسه على كَتِف الثاني، وهذا الثاني كان قد نام من قبلها ولم يشعر بأن رأس زميله وُضِع فوق كتفه،

وكَوَّر أبو سِنَّة جلبابَه على هيئةِ وسادة، وأراح رأسه عليها فاردًا جسده. لَمْ يَعُدْ يُسمع لهم صوت إلا بعد أن غافلهم الكلب وفعل فعلته، تشمَّم أقربهم إليه وبحذر سحب بأسنانه الرغيف البارز من سيَّالته، وعندما شعر المَجنيُّ عليه بما يفعله الكلب، أمسك بقحف الجريد وناوله ضربةً على رأسه، فقفز مسرعًا وعواؤه يملأ الأفق، ونظروا لبعضهم البعض، وصاحب الرغيف المخطوف يقول بحسرة:

- خطف الرغيف!

ويتمتم بغيظ:

- عملها الوسخ!

ورفيقاه يتحسسان جيوبهما ليطمئنا على ما فيها، وأحدهما يقول:

- طَبْ يورِّينا وِشُّه تاني ابن (...).

وفي هذه اللحظة أقبل رجلٌ بجلبابٍ قديم، دلف من باب القهوة وطلب من ضاحي كوبًا من الشاي وحجر معسل، إلَّا أنَّ المعلم حبشي استوقفه بإشارةٍ من يده، وبنظرةٍ واحدة عرف قَدْرَه، (لبيب) نجار مُتجوِّل لا يملك من دنياه سوى شاكوش وحفنة مسامير يضعها في سيَّالته، ويمرُّ على البيوت يصلح رِجْل طبليَّة أو كرسي أو يدقُّ مسمارًا في باب أو شباك.

قال له حبشي بصوتٍ صارم:

- خلاص طفينا النار.

وعندما جادل صاح فيه:

- بقولّك شطّبنا!

فقلّ الرجل أدبَه، وعندما لاحظ أن حبشي يسحب له الخيزرانة من أسفل المقعد، أسرع خارجًا وهو يقول:

- راجل عكر! تكونش فاكر نفسك (رضوان)، وقاعد على باب الجنة.

لم يأبَه به حبشي وعاود النظر إلى بقية الزبائن الذين لا يريدون التحرك، اثنان منهما لا وزن لهما ويستطيع التصرف معهما، المشكلة في الثالث، ذو حيثيَّة، أحد أصهار العُمدَة وابن خالته في الوقت نفسه، ولو استعجله لاعتبرها إهانة.

وضاحي لا تزال عيناه على العواجيز، اتجهوا بأبصارهم نحو النقطة، شغلهم خروج الضابط من الباب، فهم لا يفوِّتون هذه اللحظة أبدًا، يأتون لمشاهدة خروج الدَّوريَّة ولو كانوا في آخر البلدة أو حتى مرضى.

***

ضابط النقطة لا يزال في أول الشباب، ويحبونه لأنه غالبًا ما ينصفهم إذا ذهبوا إليه في شكوى، ويتعجبون من أنه وهو في هذه السن الصغيرة يحكم كل هذه البلدة.

يتأملونه بملابسه الميري والكاب، ويشيرون لبعضهم البعض على العصا المَكسوَّة بالجلد التي يضعها تحت إبطه، يعجبُهم شكلها، أشبه بالأنتيكة، فهم لا يعرفون سوى الشُّوم والنبابيت والعِصِيِّ الغليظة ذات العَقْفَة.

قال أحدُهم، أظنه حافظ: إنها عُهدة، سلموها له في المركز لينخُس بها بطن الفرَس إذا أبطأ.

فردَّ عليه أبو سِنَّة مندهشًا من جهله: أنت حمار ولا تفهم! الفرس لا يجري إلا إذا غمزوه بالمِهْمَاز وليس العصا، كما أنها ليست عهدة، اشتراها له أبوه عندما تخرج في الكلية.

– ومن أدراك؟!

– أتسألني من أدراني! وأنا كل يوم في النقطة وكل العساكر أصحابي.

لم يفرغوا من جدالهم إلا عندما قفز الضابط على ظهر الفرس الذي يقف له، ومضت الجياد تدبُّ على الطريق بإيقاعٍ لطيف. الضابط في الأمام، ظهره مستقيم وجسده ساكن لا يهتز مع حركة الفرس، العسكريان اللذان بالخلف أحدهما شبه نائم والآخر بطنه تتدلَّى أمامه. وأول ما وصل هذا الركب أمامهم اصطفُّوا له على هيئة طابور، فابتسم الضابط، يعرفهم مثلما يعرفونه، ولم يخرج ولا مرة إلَّا ووقفوا له هذه الوقفة.

وصاح أبو سِنَّة بصوته العريض: انتباه، وأدُّوا له التحيَّة العسكريَّة

مثلما كانوا يؤدونها عندما كانوا صغارًا في (الجهادية)، ابتسم لهم الضابط مرة ثانية ومضى في طريقه.

وعاود أبو سِنَّة الكلام قائلًا بأن هذا الضابط ابن أناس محترمين، فسألاه لماذا؟

– ليه! من قعدته على الفرسة..

فأومئُوا برءُوسهم بالموافقة، واقترب منهم الكلب من جديد، فرفعوا أقحاف الجريد في وجهه، ففهم أنهم غير مستعدين لقبوله الآن، وارَى ذيلَهُ بين ساقيْه وابتعد، في وقتٍ لاحقٍ سوف يُكرِّر الطلب وتعود المياه لمجاريها..

***

8

وغادر المعلم حبشي إلى بيته..

لم يرجع من الطريق الذي تعوَّد عليه، رجع من سِكَّة ترابية بين أحواض زرع خلف القهوة، سكة أشبه بالمِدَقِّ على حافة مجرى ماءٍ ولا يطرقها الناس عادةً في الليل.

لا يرغب في رؤية أي إنسان، أو إلقاء التحية على فلان أو عِلَّان الذين قد يصادفونه عَرَضًا في الطريق. فما الذي أخذه من الناس غير الهَمِّ والخُذلان، وإن كانوا يمقتونه فهو يمقتهم، وإذا كانوا يلعنونه هو الآخر يلعنهم ويلعن البطون التي أتت بهم.

أغنية عبدالمطلب رغم بهجتها وحلاوة كلماتها قلَّبت عليه المواجع،

ويشق طريقه الآن غير مُبالٍ بمداسه الذي يغوص في البَلَل والطين أو ربما رَوَث أبقار وحمير، وبضيقٍ ودفعاتٍ كالشَّخْط والنَّتْر يزيح بطرف عصاه شواشي الزرع التي تتدلى على حافَّة مجرى الماء وتحتكُّ به. يفكر في ألَّا يعود إلى البيت، على الأقل الآن، يذهب مباشرةً إلى قعدة الحشيش، يرمي همومه وسط الدخان والتوهان، أو يرجع من حيث أتى ويبيت هذه الليلة في القهوة.

جسده ثقيل ومع كل خطوة يخطوها يشعر بالإنهاك، فأنفاسُه التي كانت تصمد لتسعة وعشرة أحجار في الليلة لم تعُدْ تسعفه، والجو مكتوم، فلا أنعشته طراوةُ الليل ولا ابتعادُه عن الناس أفاده بشيء، أو لمعةُ القمر لها حلاوةٌ في عينيه.

وكله بسبب عزيزة، فالبِنيَّة توقف سوقها وعلى وشك أن تبور..

ليس له سواها، هي كل عزوته والباقون كلهم أصفارٌ إلى جوارها، إن مات هي وحدها التي سوف تشق هدومها وتحزن عليه، فلا أخت ولا بنت أخت ولا واحدة من أهله تشعر به؛ حتى امرأته الله أعلم بحالها، ومن منهما الذي سوف يرتاح من الآخر! أخوه دياب هو الوحيد من صنف الرجال الذي يرتاح إليه، لكن أين هو الآن؟ فلت عيارُه وطفش إلى براري كفر الشيخ، هَجَّ من ثلاثين سنة..

***

بِنيَّة ما شاء الله كفلقة القمر..

حلاوتها حلاوة ربَّانية، وهبها لها الله من دون كل البيت، فهو وزوجته أشبه بتَيْسٍ وعنزةٍ أو حمارة وجحش.

وفوق هذا مؤدبة، ست بيت، وتقرأ وتكتب وتحفظ جدول الضرب. ألبسها المريلة وأدخلها المدرسة، وياما شرب المدرسون شايًا وقهوةً ومعسلًا وكله مجانًا وعلى حِسِّها، وعندما حصلت على الشهادة الابتدائية أجلسها في البيت، خاف، فالنَّهْدان والاستدارات والخَرْطة التي انخرطت عليها، تثير لُعاب حتى الذين يركعون ويصلُّون.

لم تعُدْ تخرج إلا في الضروريات، حرَّج عليها، طول النهار كتفها في كتف أمها، وساعة العصر تتربعان معًا على عتبة الباب وجارة تأتي وجارة تروح.

هي العمل الوحيد الذي أداه في هذه الدنيا، ونجح فيه بامتياز..

يقولون هذا من ورائه وعندما يصل إليه الكلام كان يُسأسِئ بشفتيه ويقول: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله! يا ناس! يا أولاد آدم وحواء! بالله عليكم ما الذي فعلته فيكم بعد أن تُبْتُ إلى الله..؟

أنتم من تبادرونني بالكُرْه وأنا لست سوى رِدَّة فعل لكم يا أوباش! وإن جئنا للسهر والحشيش، صحتي وأنا حُرّ فيها!

شَكْلي وهَلَّتي ولساني الزِّفِر، تعايرونني بهم! الله هو الذي خلقني على هذا الشكل..

ضاحي، تقولون إني آكل حقه وأظلمه، أنتم أغبياء والحمير أنصح منكم! فأنا الذي انتشلته من الضياع ولولاي لكان مجرمًا.

لم يعُدْ يبرُّ به سوى عزيزة..

هي البسمة الوحيدة في حياته الآن، وطالما دخلت عليه وهو نائم وأحكمت حوله الغطاء، كان يشعر بها ويدَّعي النوم مستمتعًا بما تفعل، وعندما تدَعُه يظلُّ يتأملها وهي تخطو خارجة. أُمُّها لا تفعل ذلك بتاتًا، أقصاها تلكُمُه في كتفه ليشد الغطاء على جسده العريان، أو تزغده ليتزحزح بعيدًا ويدَع لها حيزًا تنام فيه!

لولا عزيزة ما أبقى هذه الحيزبون على ذمته، فملعون أبو الزواج إذا كانت النسوة بهذا الشكل!

***

ولدٌّ معه دبلوم عيناه عليها..

جاءت أُمُّه وكلمت زوجته، اتفقا على الفاتحة وكَتْب الكتاب والكردان والحلق، بل وعلى أجرة الكَارُّو التي سوف تحمل العزال، وكله كله في شهر برمودة بعد جني القمح، وحلَّفتها بالله إن هي فرطت في البنت لن

تعرفها بعد اليوم. وانحصد القمح وفات بشنس وبؤونة وأبيب ولا جاء أبو الولد، والشملولة أُمُّه التي جاءت وخطبت فَصّ ملح وذاب.

عرفوا بعدها أن خال الولد هو السبب، ومَنْ؟! (دكروري) الضلالي أبو قَتَب على ظهره، قال هذا الموكوس لأخته:

– عايزين تناسبوا حبشي! يا سنة زَيّ بعضها!

وضرب كفًّا بكَفّ:

– حبشي!!

وليتها المرة الأولى..

ست سبع نسوة جئن من قبل وطلبنها، تخلع الواحدة منهن مداسها وتنفضه نفضتين في الهواء وتتربَّع في بحراية الباب بجوار زوجته، وكلمة عن فلانة التي كتبوا كتابها أو عِلّانة التي زَفُّوها ولا زَفَّة السلطان. كلام على سبيل التمهيد، وإن حضرت عزيزة تغمز الضيفة لأمها، غالبًا ما تكون الغمزة على شكل لمسة في الرُّكْبة أو قَرْصة خفيفة في الفَخِذ، فتفهم وتصرف البنت وتبدأ هي في الكشف عن مقصدها، فتقول لها زوجة حبشي:

– أصل..

– أصل إيه! البت فايره وابني مَلْو هدومه ويقدر يفتح بيت.

فتمسك زوجة حبشي العصا من المنتصف:

- إن كان عليَّا أنا موافقة، بس أبوها.

- وميوافقش ليه، هو هيقول لأه على عَـدَل بنته!

تغيب المرأة بعدها، لا يُرَى وجهها مرة أخرى، يبدو أنَّهُنَّ يأتين من وراء أزواجهن، وعندما يبدأ الجد للرجال كلامٌ آخر، بل وتكاد تنشأ عداوة من لا شيء، فإذا التقى هؤلاء الأزواج بحبشي مصادفةً في الطريق كانوا يتفادونه، تكون عينا الواحد منهم في عينه ويقرص على رجله ويبتعد، ولا يُؤوِّلها هو على أنه خجل وكسوف، يفهمها على أنهم يقولون في أنفسهم: أنحن نصاهرك أنت يا أبو ودان يا حرامي الحمير! ويقول هو الآخر في نفسه: أنا السبب إذًا! وتضربونني في ابنتي يا حَوَش!

***

أخيرًا وصل حبشي إلى البيت..

خرج من بين أحواض الزرع إلى وَسَعايَة تفضي مباشرة إلى الباب، انحنى فاركًا ما علق بهدومه من طين وبلل، ودلف داخلًا فالتقته زوجته:

- يا ساتر يا رب! هدومك متعاصه كده ليه؟

- جاي خَرَّامِي.

- وليه؟

- آهو..

- تتعشَّى؟

- مَلِيش نِفْس.

- أحضَّرلك كباية شاي؟

لم يرد، ويسألها:

- مِرَات عبدالغفور مرجعتش تاني؟

- وجع في قلبها، وهي فاكرة بنات الناس لعبة.

- قصدك إيه؟

- مفيش.

- طب شوفيلي جلابيَّة تانية.

- ليه؟ طالع تاني؟

- ما انتي عارفة النهارده الخميس، والجماعة مِستنِّينِّي.

- وهترجع آخر الليل زَيّ كل نوبة! وتفضل تكُحّ ونَفَسك مكتوم لحد الصبح.

لا يعلق، ويقول لها وهو يُدخل رأسه في قَبَّة الجلباب:

– ما كان أخويا دياب عايز يناسبني، وانتي اللي وقفتي فيها.

– دياب مين ده شيخ المَنْصَر!

– ابنه هلال شاري البنت.

– دا حرامي وزيه زَيّ أبوه.

وتكمل بانفعالٍ وإشاحةِ يد:

– أنا عندي تبور ولا يخدوها الضلاليَّة دُولْ.

– كده! طيب.

***

9

اقتحم العواجيز القهوة، أول ما أدار حبشي ظهره لها..

وجوه هاربة من مَلَك الموت، والسيقان رفيعة هَشَّة كأعواد الحطب، ولا وجود لكتلة الفَخِذ أو سِمَّانة القدم أو لأية أرداف، فهذه أشياء من قَبيل الترف بالنسبة إليهم. والثلاثة بسراويل من الدَّمُّور وفانلات أحالها العرق وندرة الغسيل إلى لون يصعب تحديده، والجلابيب مطوية فوق الأكتاف، ما عدا أبو سِنَّة الذي كان يلف حبلًا حول خصره جاعلًا من الفراغ بين بطنه وصدر الجلباب الذي يرتديه عِبًّا لتجميع ما يتحصَّل عليه.

ورغم أن عيونهم عاجزة وتدمع طول الوقت، فإنها كانت تفي بالغرض،

فأول ما اجتازوا باب القهوة وقبل أن يلقوا التحية على ضاحي، تلفَّتوا حولهم وداروا على الدِّكَك والطاولات، ومنهم من هبط إلى الأرض باحثًا عن أية بقايا غفل عنها الزبائن وتركوها سهوًا.

وينجحون..

يخرجون بأشياء لا تجيء على بال أحد..

زرار أفلت من عروة زبون، رباط حذاء أو ولَّاعة خربانة، ومن ينكفئ أسفل إحدى الدِّكَك ثم يخرج وبين أصابعه زِرُّ عمامة، والذي يرمش بعينيه بعد أن التقط ثلاثة مسامير بقلاَووُظ، وكلها جديدة لم تُستعمل بعد، وكانت فوارغ البيبسي والكوكاكولا وما شابه تخلب عقولهم، ويمدون أيديَهم إليها بحذر، فضاحي كان صارمًا معهم في هذا الموضوع، يشدُّها منهم بغضبٍ ويتشاجر إذا لزم الأمر، كانت عُهدةً عليه ومحسوبة بالواحدة.

يدسُّون هذه الأشياء في سيَّالاتهم أو في مخالٍ يعلقونها على أكتافهم، وآخر الليل عندما يعودون إلى الخرابة التي يبيتون فيها، يضمُّونها إلى أخواتها التي جمعوها على مدار سنين وخزنوها في أجولة وزكائب، فأشياء لا حصر لها كانوا يحوزونها؛ علب صفيح فارغة، أُكَر أبواب عطلانة، أغطية كازوزا، مداسات أفناها أصحابها ورموها في الخلاء.. ناهيك عن العيش الشِّحَاتة، كان عندهم منه زكائب وبأرغفة على كل لون وحجم، فهم يأتون بها من كل أفران البلدة وكل فرن وله خلطته ومقاساته، وعندما تزيد عندهم أو يطالها العفن كانوا يبيعونها لمن يربُّون الكتاكيت.

وأشياء وأشياء أغلبها ليس له نفع ولا قيمة، غير أنها كانت عزيزة عليهم ويحذَرون من أن يغافلهم أحد ويسطو عليها. كانوا يحفظونها في رءُوسهم بالعدد والصنف، ويفتحون الأجولة والزكائب في أوقات الفراغ ويجردونها، وإذا اكتشفوا ضياع ولو خردلة واحدة يذهبون لضابط النقطة ويشتكون. والرجل فرصة وأتت له ليتسلَّى، يستمع لهم باهتمام ويُقطِّبُ جبينَه كاتمًا ابتساماته، ثم يقول لهم كلمة طيبة مع وعد بأنه حالًا سوف يعطي أمرًا لكل العساكر والخفراء، بأن يدَعُوا ما في أيديهم ويأتوه بالكوز المخروم أو غطاء الزير الذي سُرق منهم.

فيسألونه: والحرامي؟

يقول: على (أبو زعبل) على طول.

يصدقون كلامه وينصرفون، غير أنهم لا يعاودون الرجوع لمتابعة النتائج، ينسون..

***

لم يدخلوا على ضاحي مرة، إلَّا وهجموا على عَشَائِه..

فهذه أول خبطة يخبطونها، إلَّا أنَّه كان منتبهًا لهم هذه الليلة بالذات وأخفاه عنهم، فقبل ساعة جاءه من بيت حبشي وَرِك دجاجة على طبق أرز وسَلَطة وبطاطس وفوقها جميعًا شقة بطيخ.

كان وَقْع العشاء عليه طيبًا، رفع روحه المعنوية وبدَّل مشاعره تجاه حبشي، غير أنه لم يهنأ به، هزمه العواجيز، فئران جائعة، كنسوا القهوة كنسًا وقلبوا النَّصْبَة رأسًا على عقب حتى وصلوا إليه. ومن ضجره منهم وزعله على عشائه الذي ضاع، رفض أن يعدَّ لهم الشاي مثل كل مرة، فلم ييأسوا، تصرفوا، شربوا ما تبقَّى في الأكواب التي لم تُغسل بعد، رشفة شاي على رشفة حلبة على ينسون أو زنجبيل، كل ما هو متاح، وواحد منهم أظنه جاد، سَفَّ ربع قرطاس السكر وأخرج تفل الشاي المُتبقِّي في البَرَّاد ولفَّه في ورقة ودَسَّه في السيَّالة، وبعد أن أيقنوا أنه لَمْ يَعُدْ لديه شيءٌ آخر يُؤكَل أو يُشرَب، خرجوا وهو معهم.

***

لا خُطَّة لديهم ولا هدف..

التسكُّع مجمل حياتهم، أمضوا القيلولة في ظل شجرة جُمَّيْز أو توت ونهضوا مع صلاة العصر، أدوا الصلاة في الخلاء وانطلقوا، فنادرًا ما يدخلون الجوامع، ويوم الجمعة يلتصقون ببعضهم البعض ويجلسون في آخر صف، أو يصلون على حصيرة خارج الجامع، فالناس لا ترحب بهم، يتزحزحون بمؤخراتهم بعيدًا عنهم، ومنهم من يعبس في وجوههم إذا لمسوه في الصلاة، ليسدُّوا الفُرَج والفواصل مثلما يقول إمام الجامع.

يقول الناس: إن الثلاثة وبلا استثناء يميلون برءُوسهم وينعسون طوال

خطبة الجمعة، وأن حشرات تملأ هدومهم ويخشون أن تقفز عليهم.

وأكد رجل بعباءةٍ وطاقيَّةٍ بيضاء أنه كلما لمحهم في الجامع، يجلس على مسافة أربعة أو خمسة صفوف منهم على الأقل.

ويبرر ذلك: وما الذي أفعله! لا يستحون! يُخرجون ريحًا أثناء الصلاة.

ثم يشعر بالذنب مما قال، ويشيح مراجعًا نفسه: العلم عند الله، فيجوز أن هذه الأشياء تفلت منهم وهم لا يشعرون!

ناهيك عن واحد من أئمة إحدى الزوايا اسمه الشيخ (نصَّار) شيخ من الشيوخ (النِّصف كُمّ) وكل زاده جزءُ (عَمَّ) وكتابٌ أو كتابان من الكتب الصفراء. استوقف هذا الشيخ الناس بعد أن أدوا الصلاة، وشرح لهم بغضب مَغبَّة دخول هذه الأشكال إلى الجوامع، وأنه أكبر غلط نتسامح فيه نحن عباد الله! فكيف يدخلون وهم فاقدون لشروط الطهارة، لا يتوضأون مثلنا ويتبوَّلُون ويَتغوَّطون في الشوارع بلا حياء، كما أنهم لا يَتحمَّمون ولا يغسلون هدومهم..

واستطرد محذرًا من أن الله -سبحانه وتعالى- سوف يحاسبنا على هذا التقصير، فالدين النصحية وأنه نصح وأخلى مسئوليته، وهو بهذا لا حساب ولا حُرْمانيَّة عليه يوم الدين، الوِزْر كله على كل من سمع النصحية ولم يعمل بها، ومن يومها تبدَّل أكثر الناس تجاههم، ولم يعُدْ يقترب العواجيز من أي بيت من بيوت الله.

قيل هذا من سنين طويلة، ومن واحد إلى الثاني ومن بيتٍ إلى بيت ومَنْ حذف ومن أضاف حتى تبلورت المسألة في شكل فتوى شرعية، وفي زحام الكلام وبدون أن يقصد الناس أو يحسُّوا، نسبوها إلى أحد الأئمة الكبار غافلين عن أنها بنت الشيخ نصار، فهو صاحبها وأبوها وأمها وأئمتُنا مظاليم.

***

10

عَفَّ عنهم الناس، فتعلقوا بضاحي..

فلا صاحب دكان أصبح يتحمل رؤيتهم، يريدون شايًا وسكرًا وجازًا أو حفنة أرز يطبخونها، ويمدون أيديهم بربع الثمن مثلما تعودوا، فيُشيح أصحاب الدكاكين في وجوههم أو يزجرونهم، ويكون أحد الناس الطيبين واقفًا فيستاء من هذه المعاملة:

– وليه بس يا شيخ سطوحي أو يا حاج عمارة! دا انت ما شاء الله دُكَّانك مليان وربنا موسَّعها عليك.

– بتقول ليه؟! مسمعتش ولا مرة عمك الشيخ نصار بيقول عنهم إيه!

وعندما يبدو على وجه الرجل عدم الارتياح، يبدأ صاحب الدكان في التجهُّم هو الآخر:

– دا أنا الوِدّ ودِّي أحرَّج عليهم مَيخطُّوش ناحية الدكان، معاهم وللا ممعهمش.

فيقول الرجل في نفسه: ربنا يهد حيلك يا شيخ نصار.. مبسوط! آديك خيِّبت الناس، ويدفع هو الحساب بدلًا عنهم.

أصحاب البيوت أيضًا لَمْ يَعُدْ يَبشُّون في وجوههم، وإذا أقاموا ختمةً أو طهورًا أو أية مناسبة توقد فيها الأفران والكوانين، كان الخدم يسلمونهم الطعام من الباب، لا يُجلسونهم أبدًا على الطَّبالِي المرصوصة في فناء البيت. وعندما يُقلِّبون هم في الأكل المُعطَى لهم ولا يجدون فيه فتفوتة لحم واحدة، والحكاية كلها لقمة غموس على دهن وشَغَت، كانوا يستمرون في الوقوف لعلَّ هؤلاء المحسنين يراجعون أنفسهم ويتحسن الموقف، فيقطع عليهم الخدَمُ هذا الأمل ويصرفونهم قائلين:

– هو دا الموجود..

كان مفعول الشيخ نصَّار قويًّا بالفعل، إلَّا على النسوة اللائي يجلسن بالمشنَّات ويبِعْن الخضار إذ كُنَّ أحد الاستثناءات، فعلى ما أظن لم تكن هذه الإفتاءات قد وصلتهن بعد، أو ربما وصلت غير أن الفطرة وجَّهتهن الوجهة الصحيحة. كُنَّ يعطونهم ثمارَ طماطم وخيار وباذنجان أو كبشةَ كوسة أو قرنبيط ومن كل ما هو مفروش أمامهن، فيلتقطونها بفرحة ويأكلونها في الحال، حتى التي منها في حاجة إلى طبخ ونار، ويقرقشون

حَبَّات اللِّفْت أو أعواد السبانخ مثلما تفعل المعيز والخِرَاف.

***

في الليلة التي أكلوا فيها ورك الدجاجة وخرجوا هم وضاحي، مشوا على حرف الرَّشَّاح الذي يخترق البلدة ويقسمها تقريبًا إلى نصفين. مشوا اثنين اثنين، حافظ وجاد في الأمام، ووراءهما أبو سِنَّة وضاحي.

ومع أول خطوة تسلم أبو سِنَّة ناصية الكلام، يثرثر ويشيح بكلتا يديه عن الحاج فلان الذي شخط فيه، وكاد أن يلسعه بالخيزرانة عندما وجده مُمَدَّدًا في أحد الأركان وسرواله مقطوع، أو عن الحاجَّة فلانة التي تعرف ربنا مثلما قال، وأرسلت له جلبابًا قديمًا من جلابيب زوجها، جلباب صحيح به مَزْقان وخرم واسع من عند البطن، لكنه يصلح ولها الشكر فهذا الذي قدرت عليه.

وأثناء حكيه وتشويحاته تهدَّل الشال الذي يلفُّ به رأسه، فتوقف وفكَّه ليعيد إحكامه من جديد، وبدا رأسه مستطيلًا رفيعًا من الأمام كرءُوس الفئران. وكان ضاحي كلما شاهد رأسَهُ عاريًا على هذا النحو يتذكر أباه، كان له نفس الرأس هو الآخر وإلى حَدٍّ كبيرٍ كانا يقتربان من بعضهما البعض في التقاطيع وتدويرة الفم بالذات، ربما الفارق بينهما أن أسنان أبيه كانت كاملة إلا واحدة أو اثنتين، أما أبو سِنَّة فلِثْتُه جرداء، فيما عدا السِّنَّة إيَّاها المشطوفة من أعلى وهناك في آخر الحَلْق.

وقبل أن يشرع أبو سِنَّة في جولة ثانية من الكلام، تحسَّس جُرحًا غائرًا

بفروة رأسه، وقال: إنه من جَرَّاء لسعة نار عندما كنت أعمل في الحدادة، كنت يومها أمسك سيخًا من الحديد ورأسه من شدة النار أعوذ بالله...

غير أن ضاحي لم يُعطِه فرصةً للاستطراد، قال له: إنه يعرف كل هذا، فقد سبق وأن حكى له هذه الحكاية عشرين مرة.

ثم سأله: ألا يزال ابنُك (النبوي) عاصيًا عليك ولا يسأل؟

فتنهد أبو سِنَّة: النبوي.. ملعون أبوه!

وبدت على وجهه مسحةُ غضبٍ وهو يضيف: من يوم أن وضع ابنه قطعة عجين في أذني وتعاركنا، كل منَّا في حاله. قلت له: علق الولد في السقف أو ضعه في (الفَلكَة) فلم يفعل، وقال لي ابن الكلب هذا: ألَا يكفيك الكَفُّ الذي ضربته له يا أبي، لقد انطرش الولد بعدها ولم يعُدْ يسمع، كفاية يا أبي كفاية!

ويشتد غضب أبو سِنَّة: وهل سكت؟! طبعًا لا، شتمته ونزلت عليه بالمَدَاس، ثم هبدت باب العشة بقدمي وخرجت، تركتها له بكل ما فيها.

– أنت الغلطان، العشة عشتك فلماذا تركتها؟

– مجبور يا ضاحي مجبور، من بعد ما ماتت امرأتي وأنا تبهدلت، عياله عفاريت، جعلوني لعبةً يلعبون بها، العجينة مرة ومرة وأنا نائم ربطوا رِجْلي في رجل الخروف! يا سَتَّار يا رب شياطين!

– ربما أُمُّهم هي التي توزُّهم؟

– سميحة! لا. لا. البنت غلبانة وأنا مكسوف منها، كل ليلة الوسخ

يريد النوم معها وأنا بينهما كالخازوق، واسمعها تقول له: استحي! أبوك لم يدخل في النوم بعد، وهو كالحمار الفالت.

ويتنهد من جديد: النهاية.. قلت الخرابة أولى بي وهناك لقيت حافظ وجاد، جاد جاء للخرابة (بخُطْره) من يومه وهو يموت في (الصِّيَاعة). أما حافظ فحكايته حكاية، فبعد أن انحنى ظهره وثقلت الفأس على يده تسلطح لهم في البيت، أكل وشرب ودخان على قفا عياله، والعيال ما شاء الله قالوا: أبونا ونتحمله، لكن حافظ وأنت سيد العارفين داؤه الكوتشينة والمشي البَطَّال، يا يبيع جلَّابيته ويلعب بحقها ويقعد لهم بالفانلة واللباس، أو يسرق من وراء زوجته، حَلَّة، مِشنَّة، طبق، وهات يا لعب! حذرته مرة واثنتين وعشرة، وعندما مد يده للوابور وراهن عليه في دور كوتشينة لم تتحمل، كرَشَتْهُ هي والعيال.

ويسأله ضاحي: دعنا من حافظ وجاد، ألَا يحنُّ عليك النبوي بشيء، أكل، فلوس، جلباب؟

فتبسم أبو سِنَّة: يفعل.. في العيد اللي فات كان يسحب حمارته ورآني، حدف لي كوزين ذرة، والسلام عليكم: عليكم السلام.

- لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله!

- فلَاتِي وابن حرام!

***

استمر أبو سِنَّة في الرغي، وضاحي يستمع..

كما كان حافظ وجاد في حالة من الانسجام وتصدُر عنهما ضحكات عالية، غير أنهما كانا أحيانًا ينفصلان عن بعضهما البعض. ينحني أحدهما ويلتقط شيئًا من الأرض، فلا يشعر به الآخر ويستمر في المشي.

غالبا ما تكون ثمرة من الثمار التي تقع من فوق ظهور الحمير أثناء رجوعها من الغيطان، ينفخ فيها نافضًا الغبار العالق بها أو يحكُّها في سرواله عدة مرات، ويقضم منها قضمة ثم يداريها في أي جيب، ويسرع للحاق برفيقه.

فيسأله عن سبب تَلكُّؤه.

لا يقول له الحقيقة، يدَّعي أن حصاةً انحشرت في المداس وتخلص منها، ويصمتان، برهة ويعاودان الثرثرة من جديد، ويتناقشان في تفاهات تُفضي بهما إلى الشِّجار ويمسك كل منهما الآخر من قبة الجلباب مهددًا، وفجأة تمرق عِرسة أمامهما خطفًا فيدعان ما كانا فيه ويسرعان وراءها، يفشلان، تطير منهما كالصاروخ، فيضحكان وأحدهما يقول:

- بنت الإيه!

ووراءه الثاني:

- إلَّا العِرَس والسَّحالِي، ولا واحد في الدنيا يقدر يحصلهم، ولا دقرود.

يتساءلان بعدها عن السكة التي سوف تعود منها الدَّوريَّة..

حافظ يقول: من عند مكنة الطحين، ويراهن بالزرار الذي عثر عليه في القهوة.

وجاد يؤكد على أنها قادمة من ناحية الكوبري الخربان، ورهانه: ولَّاعة عطلانة لا تفارق جيبه.

ويستمران في السير..

يجذبهما النقيق القادم من الرَّشَّاح الذي على يمينهما، ويشعران بحركة الضفادع التي تَثِبُ في الماء. لا يريانها، يعرفان فقط أنها ضفادع وأن النقيق نداءات من ذكور لإناث، فينحرفان صوب الماء وهما يبتسمان، غير أن "أبو سِنَّة" الذي نَصَّبَ نفسه رئيسًا لهذه الجماعة والمسئول عن سلامتها، يتنحنح لهما من الخلف نحنحة محذرة، يخاف أن تزلَّ أقدامهما ويقعا في الرَّشَّاح؛ رأى حوادث مثل هذه وراح أصحابها في شَرْبةِ ماء. وحافظ وجاد لا يكترثان به ويستمران، فينادي عليهما بأن: لا. لا. ويعلو صوته زاعقًا فيهما: احترما نفسيكما فالدوريَّة على وشك الوصول، وسوف يأخذ حضرة الضابط عنكما فكرة بَطَّالة، فيتوقفان على الفور، لا يريدان أن يَبْدُوَا في صورةٍ سلبيَّةٍ أمام الضابط.

***

وتصل بالفعل، عشر دقائق وربما أقل ويُسمع وقع حوافر الجياد من بعيد.

خافتًا أول الأمر، وما يلبث أن يعلو بالتدريج ومعه أصوات العساكر وسعالهم، ومع ذلك لا يرونها، ليس بسبب الظُّلْمَة التي خيَّمت فقط، عيونهم الكليلة لا تساعد، وفجأةً يجدونها أمامهم، على بعد خطوات من

مكنة الطحين التي يقفون أمامها، فيسرعون بارتداء الجلابيب احترامًا لها، ويزغد حافظ صاحبه جاد ليعطيه الولاعة التي كسبها منه في الرهان.

يتطلع إليهم الضابط من فوق الفرس، ويشير لضاحي ويسأله عما سمعه من أن الناس يلعبون الكوتشينة عندهم بالفلوس؟

فيرفع ضاحي سَبَّابَته نافيًا:

– أبدًا يا باشا كله إفترا.

– وحبشي؟

– غلبان يا باشا وعايز ياكل عيش.

فيلتفت الضابط إلى "أبو سِنَّة" ورفيقيه، قائلًا بأن الوقت تأخر وعليهم العودة إلى بيوتهم، فيرفعون أيديهم أمام جباههم بالتحيَّة العسكريَّة، وأنهم سينفذون أوامره في الحال.

ويتقدم هو بالفرس، والعسكريان اللذان خلفه يرميان لهما بعضًا من الثمار التي التقطاها من الغيطان أثناء المرور، يتلقفونها ويضعونها في حُجُورهم وهم يدعون لهما وللضابط والمأمور بطول العمر.

يقولون لضاحي بعدها: ما رأيك لو بِتْنا عندك هذه الليلة؟، ظهورنا موجوعة من النوم فوق فوارغ الخيش في الخرابة.

يسمح لهم، ومن الفجر يوقظهم وينظف مكانهم حتى لا يشعر حبشي بأنهم كانوا هنا.

***

11

العاشرة مساءً، والعواجيز ما من أثر..

ثلاثة أو أربعة أيام ولا حِسّ ولا خبر، من بعد الليلة التي التقى فيها معهم بالدورية لم يظهروا، وبدأ ضاحي في الانشغال، فهم لا يغيبون أبدًا عن حَيِّز القهوة، وإن غابوا هو يوم وفي الثاني يجدهم متقرفصين في أيِّ ركن.

يفتقدُهم..

فرغم رذالتهم عليه أحيانًا وما يسبِّبُونه له من إحراجات مع المعلم حبشي، فإنهم يملأون حياته، ويشغلونه عن السَّرَحان في الدنيا القديمة التي عاشها قبل أن يجيء إلينا.

لا يشعر برغبة في النوم، سحب مقعدًا وجلس أمام القهوة..

الدنيا أمامه لا حركة فيها ولا صوت، الناس أغلقت البيوت، إلا بيتًا هناك في الجهة المقابلة للشارع لا يزال صاحيًا، ورجل قدماه ممدودتان أمامه يجلس على عتبة الباب ومعه امرأته وعياله الثلاثة، بيت من البيوت الغلبانة جدرانه بالطوب النيِّئ وملطوسة بطلاء لا يسرُّ العين، حتى عيون الدَّوابّ والحمير التي تسير أمامه.

تناولوا العشاء على ما يبدو، وتحلَّقوا حول جمراتِ نارٍ دست فيها المرأة (بَرَّاد) الشاي قبل قليل، وكلما خبت تنفخ فيها وتهشُّ عن عينيها دفقات الدخان المتجهة إليها. ورفع الرجل حافَّة طاقيته وحَكَّ فروة رأسه بغيظٍ ثم دخل في غفوة، والعيال اثنان منهما يتناوشان بصوت يعلو أحيانًا خادشًا هذا السكون، والصغير يلتصق بأمه وكلما نفخت في الجمر وازداد احمراره، التقط عقلة حطب ومد يده لإشعالها، فتنهره أو تلكزه في جنبه.

وتفلت عَنْزَة من باب البيت مسرعةً إلى الشارع، عنزة شكلها مُلفت، ضلوعها بارزةٌ وجسدُها ضامرٌ تمامًا، ضرعُها هو الأُعجوبة، متروسٌ بالحليب حتى آخره ويكاد يصل إلى الأرض، ومع ذلك كانت عفريتة وضرعُها على ضخامته لا يعيق حركتها. قفزت من فوق بطن الرجل النائم دون أن يحس، ولمَّا رفع أحد الأولاد يده ليمنعها نطحته، فمال بجسده مُطيحًا ببرَّاد الشاي الساخن في حِجْر أمه، وولَّت هي هاربةً إلى أحد البيوت المجاورة، بيت الحاج عبدالصمد، بعد بيتهم بخمسة أو ستة بيوت. وهبَّت المرأة واقفة

تنكُت الشايَ عن جلبابها، وتشتم العنزة وأباها وجدها و(عرابي) تاجر الغنم الذي ورَّطهم فيها، وجرت صوب بيت الحاج عبدالصمد وهي تصيح:

– آه يا مزغودة! كل يوم تجرِّيني وراكي، مش هتبطَّلي الخصلة دي؟

وعادت وهي تجرجرها من أذنها، وتقول لزوجها بانفعال:

– شوف لك حل معاها، أنا خلاص تعبت.

والرجل يتثاءب، ويتابعها وهي تلكُمها في ظهرها وتقول:

– دي زَيّ ما تكون كارهه عيشتنا، مفيش قُلَّة إلَّا لما كسرتها، ولا وِزَّة ولا بَطَّة إلا واتعاركت معاها.

ويعلق الولد الكبير ضاحكًا:

– معلوم زعلانة! مش إنت يابا بعت خلفتها لعم الشيخ عبدالصمد، آهي بتهرب وعايزه تروح لعيالها هناك.

فيشيح له أبوه بظهر يده:

– يا سلام! وإيش دَرَّاها يا فالح إن الحاج عبدالصمد هو اللي اشترى عيالها؟

وتشخط فيه أُمُّه:

– إتلهى إتلهي وخلِّيك في حالك، وكفاية عليك التَّلَت كحكات اللي خدتهم في الشهادة.

وضاحي يتابع بشغف..

فهذا البيت هو أول بيت وقف أمامه عندما جاء إلى بلدتنا أول مرة، وكان الرجل الذي يُمدِّد قدميه الآن يجلس أمامه، هو ورجل بعمامة ولحية بيضاء، كان أباه، وصارت بينهما وبين ضاحي بعد ذلك علاقةٌ ومَودَّة.

سألهما يومها المساعدة، يسرح لهما ببهيمة، يخدمهما في البيت أو أي شيء يريدانه، فقال له ذو اللِّحْيَة:

– يحنِّن يا بني، يا ريتنا كُنَّا أصحاب مِلْك كُنَّا شغلناك عندنا.

وأشار عليه ذو القدم الممدودة بأن يعرض نفسه على صاحب هذه القهوة، وأشار له عليها، وذو اللِّحْيَة يُعقِّب قائلًا:

– ودا يقدَر يصمد مع حبشي، دا عَيِّل غلبان.

***

مضى على هذا اليوم عشرون سنة..

كان وقتها صبيًّا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، طافش من بلدته وحالته مُزْريَة، بجلباب على اللحم وقدمه اليُمنَى مربوطة بخِرْقَة بعد أن نزفت من جَرَّاء شوكة انغرزت فيها. يومٌ بليلةٍ حتى وصل والتقى بهذين

الرجلين، جاس في غيطان وسِكَك وخاض في بِرَك وأوحال، ونُجُوع وكُفُور وعُشَش تقف وحدها في الخلاء.

ويبتسم لتصاريف القَدَر..

فلم يكن يعرف إلى أية وجهة يتجه، فكل بلاد بحري تشبه بعضها البعض، إلى أن صادفته بلدة وقع في غرامها. بلدة يبدو عليها الثراء وتتكاثف أشجار الكافور عند مدخلها، وأشجار يوسفي وبرتقال تحيط بها من كل اتجاه. تمنى لو يقبل به أهلها، بعد أن خلب بصرَه النهرُ الواسعُ الذي تطلُّ عليه، والهويس الكبير الذي يعلوه. وقف وبيده بُقجَة هدومه يتأمله ويتأمل حركة الماء وهي تأخذ شكل دوَّامات سريعة عند بوَّابته، ثم تجري باندفاعٍ وبصوتٍ يدوِّي بغضبٍ كلما فتحوها له، إلى أن راحت عيناه إلى صِبْيَة في مثل سِنِّه بين لَمَّةِ شجر. كانوا يتصايحون وينزعون هدومهم على عجل، ومنهم من سبق وقفز في الماء أو لا يزال على حافته مترددًا، ويداري عورته خجلانَ من رفاقه مع أنهم عُراةٌ مثلهم مثله. ويبدو أنهم لمحوه، وخمَّنوا أنه عَيِّلٌ من العيال الخبَّاصين وحتمًا سوف يبلغ آباءهم، فبَدءُوا بالشتيمة وعندما لم يتحرك قذفوه بالأحجار وشرعوا في ارتداء ملابسهم لمطاردته. لم يتمكنوا منه، أفلت واختبأ بين أشجار اليُوسفي والبرتقال، كل الخسارة التي خسرها بُقجَة هدومه، وشطح من بلدة إلى الثانية حتى ساقه النصيب إلينا، ثم إلى القهوة مثلما اقترح عليه ذو القدم الممدودة.

***

كان باب القهوة مُواربًا، ولا أحدَ فيها..

فسلم أمره لله وجلس بجوارها، لم يطُلْ بقاؤه على هذا النحو، شعر بطرف خيزرانة ينغزه في جنبه وفحل جاموس يقف فوق رأسه، فهبَّ واقفًا ومن الارتباك رجع خطوتين إلى الخلف وفكر في الجري من أمامه، إلَّا أنَّ حبشي عَكَمهُ من طوق الجلباب:

- إسمك إيه يا وَلَه؟

- ضاحي.

- ومن هنا؟ وللا من العِزَب اللي حوالينا؟

- من نواحي أبو المطامير.

- أبو المطامير! يا سبحان الله، وإيه اللي حدفك علينا؟

- أَكْل العيش.

- عيش مين يا وَلَه! يعني ضاقت عليك، دا احنا بينَّا وبينكم تَلَتْ مديريات.

- آهو. ظروف.

- ومَلِكشْ أهل؟

- كلهم ماتوا.

– ماتوا..

وتمتم حبشي في سِرِّه: آهو كلهم في الأول بيقولوا كده.

ثم قال له:

– إنت يا واد حرامي وللا عامل عملة وهربان، وللا مِلَّتك إيه؟ يللا يللا غُور من هنا.

وعندما تَلكَّأ ضاحي في الانصراف، أشار حبشي إلى باب النقطة:

– إنت هتمشي وللا أجيب لك العسكري.

ثم عاد وأدارها في نفسه، أراد الاستفادة منه، فقد كان يقف في القهوة بطُولِه وكُلُّ صَبيٍّ يأتي به لا يكمل يومه الأول ويتركه:

– وللا أقولك تعالى ورايا.

ودخل به إلى القهوة ومن يومها وهو يعمل بها، وفق الشروط التي اشترطها عليه: الأكل على حبشي، غير جلباب وغيارين في الصيف ومثلهما في الشتاء، أما الفلوس فينساها:

– وآهو اللي هتاخده من الزباين يبقى حلال عليك، بس الشغل شغل، ومن الصبح تقف زِنْهَار لحد ما تشطَّب القهوة.

وخَيَّره بين العسكري أو يعمل عنده وفق هذه الشروط، فأذعن ضاحي وحبشي يقول له:

– على بركة الله وآديك هتاكل عيش ولقمة بالحلال، وإن كُتّ عامل عَمْله في بلدكم وهربان آديك هتستخبَّى عندي.

***

12

ملعونة الكوابيس، فإذا أمسكت برقبة إنسان لا ترحمه..

طفقت تلاحق ضاحي منذ أن جاءنا، وبالذات سنواته الأولى؛ حتى إن حبشي غليظ القلب -على حد كلام الناس- كان يرأف به، وكَمْ من مرةٍ راح به للشيوخ الذين يفهمون في هذه المسائل، وأدعية وأحجبة وتلاوات..

كانت تأتي وتروح في لحظات، مشهد واحد لا غير، غير أن مفرداته صعبة، وكأنه في مأزق أو تلقَّى ضربةً فوق الرأس، ولا سبيلَ للفِكَاك إلَّا بخروجه من النوم مفزوعًا. ومرَّاتٍ تطول، تحتويه في مشهدٍ بعد مشهد،

لقطة في لقطةٍ أشدَّ منها، وهو مشلول لا يستطيع الإفلات، تطحنه طحنًا مثلما تطحن الرحاية بذرة الشعير.. ثم تنساه، وربما لأشهر أو سنين، حتى أتته من جديد بعد الليلة التي سهر فيها أمام القهوة، وضحك من قلبه على عراكِ المرأة مع عَنْزِتِها.

فما إن غاص في النوم إلَّا وشعر بأنه على حافَّةِ شيءٍ يبتلع، وهي خطوة ويهوي فيه..

فراغ ودنيا مكحلَّة، فلا بيت يلوذ به ولا أحد يغيث لا كبيرًا ولا صغيرًا أو شعاع نور ولو من بعيد، عتمة وسُكات وشيء على وشك الانقضاض. شيء نِيَّاته سيئة، ولا يُرَى.. وَقْع خطواته فقط هي التي تقول إنه يقترب، ومن الخَضَّة والزَّومَان الذي تئنُّ به حنجرتُه يقوم نصفَ قَوْمَةٍ وحَبَّات عرقٍ تسيل فوق جبهته. يتلفَّت حوله مستعيذًا بالله وإدراكه لا يزال مُشوَّشًا، وكأنه لم يستوثق بعد إن كان لا يزال في قلب الكابوس أم أفلت منه.

وسريعًا إلى لمبة الجاز المُعلَّقة على الحائط، ضؤوها ضعيفٌ مثلما تركه قبل أن ينام، أمسك بقاعدتها وبرعشةِ أصابعه أدار فتيلَها فتضاعف النور وبانت مفردات القهوة.. مَوْقِد النار.. سَطْل ماء تعوم فوق سطحه فُقَّاعاتٌ ورغوةُ صابون.. أكواب لم تُغسل بعد.. عُلْبَة دُخَّان مُلقاة وبها سيجارة منسيَّة، وكأنهم صلُّوا الفجر، تأتيه أصواتُ الناس وهم خارجون

من الجوامع، ونعيرُ جاموسةٍ من بيتٍ قريب، نعيرٌ كالبكاء كما لو أنها على وشك الولادة أو بها داء.

يستعيذ بالله مرةً ثانية، ويتمتم بسورة (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) سبع مرات، وهو يعدُّ على أصابعه مثلما علَّمته أمه في الصِّغَر، ويتوضأ ويصلِّي الفجر داعيًا إلى الله أن يصرف عنه هذا الشر. وفي الصباح يُفاجأ بأبو سِنَّة يطلُّ عليه من باب القهوة، ولَمَّا اطمأنَّ إلى عدم وجود حبشي دخل إليه مباشرةً، ووكزه في كتفه مداعبًا:

– مش رُحْنا كفر أبو عيسى، وقعدنا هناك تَلَتْ تيام.

– كفر أبو عيسى بتوع الفول الحِرَاتي؟

– عليك نور.. قعدنا نسرحوا من بيت لبيت، وأول ما يدخل علينا الليل نباتوا في الجامع اللي هناك.

ويتمطَّى بانبساط:

– مِرْواحَة مُكْن، ورجعنا بزكيبة عيش وبُقْجَة هدوم وفوقهم أربعة جنيه.

– عارفهم! وياما جاني زباين من هناك، بيموتوا في الحِلْبَة الحَصَا.

ويكمل ضاحي وعلى وجهه ربع ابتسامة:

– بس دي ناس هَمّ، مبيهونش عليهم القرش، بيقعدوا يفاصلوا لحد ما يطلّعوا روحي، عَمّ حبشي هو اللي بيعرف يسْلَك معاهم.

– مصدقك وشُفت بعيني، بس إحنا شغّلنا مُخّنا.

– يا سلام!

– آه والله.. أول يوم قعدوا يبحلقوا فينا وتاني يوم كشّروا في وِشّنا ومبقوش يردوا علينا السلام، دا حتى حافظ خاف وقال: الناس دي شر وحيقطّعُونا حِتَت، أنا بقول ناخدها من قصيرها ونرجع.

– حافظ؟!

– آه حافظ! جاد هو اللي مرضيش، ما انت عارفه تِلِم وصِدِغ ولو انضرب عشرين كَفّ علشان الرغيف يستحمل لحد ما ياخده، آهو رقد لنا في الأرض وقال: أنا مش مِتَّعْتَع من هنا إلا لمّا ألِمّ حق المشوار، وقعدنا.

– وبعدين؟

– ولاد اللذينا سلّطُوا علينا عيالهم تحدفنا بالطوب، وسمكروا باب الجامع.

– ها! وعملتوا إيه؟

– اتصلطحنا قُدّامه لحد الصبح، وأول النهار ما شقشق جينا طَوّالي.

ويهرش ركبته مبتسمًا:

– بس نسوانهم إيه! أيديها سخيَّة، الرغيف السُّخن وعليه دحية وللا اتنين، واللي تِدِّي عشرة صاغ، واللي تدخل وتجيب لنا من هدوم جوزها، صديري، تلفيحة، مداس..

– ما شاء الله!

– بس تعبنا، أنا كُتّ عامل أعرج ورِجْلي مكسورة، وجاد ربطنا له عينه وقلنا: أعمى مبيشُفْش.

– وحافظ؟

– حافظ هو اللي كان بيسحبنا ويحوش عنِّنا العيال، عيال ولاد جزمة، والله كُتّ هَتْبِطِح!

ويسأل ضاحي:

– وانت عامل إيه؟

– آهو. كل ليلة كابوس واتنين.

– مش كُنَّا ارتحنا من الحكاية دي.

ويُشيح بظهر يده:

- تلاقيك محسود.

- محسود! محسود على نيلة إيه! عشرين سنة وأنا شَغَّال مع حبشي، وكل اللي حَوِّشتهم سبعتاشر جنيه.

***

13

آخر ما رآه لم يكن كابوسًا كالكوابيس السابقة..

كان حُلْمًا وأحداثًا وشخوصًا يعرفها وتعرفه، حُـلْمٌ كالأحلام التي يراها الناس ويحكونها لبعضهم البعض، غير أن وَطْأتَه كانت شديدة، وكُلَّما طاف به بعدها كان يرمقه بحزن ويصرفه بأية وسيلة.

فكأنه في بيتهم القديم، الغرفة اليتيمة التي كانوا يبيتون فيها، وأُمُّه في أحد الأركان ولا شيءَ آخر سوى حصيرةٍ لا تشغلُ كثيرًا من حيِّزِ الغرفة وطَبْليَّة تميل جانبًا من جَرَّاء كسر في أحد أركانها، ومسخوط بعين واحدة كانت تلعب به أختُه فيما مضى.

رفعَتْ أُمُّه رأسها إليه..

وجهها بليدٌ كوجوه الموتَى، وعيناها سوادهُما ثابتٌ بلا حركة أو فيه نظرةٌ تستشفُّ، كما لو أنهما فارقتا الحياة ولم تنسدل عليهما الجفون بعد. لم يؤلمه ما يراه أو تحركت فيه مشاعر رحمة، وصوتٌ يقول له: أُمُّك لم تمُتْ مثلما يبدو لك، حيةٌ وتعيش، تُناوِر فقط وتدَّعي الهلاك! ولو كنت جئت مبكرًا للحقت بأختك هانم التي قتلتها ودفنتها في الخلاء. وفي اللحظة ذاتها اندفع ديكٌ رُوميٌّ وقوقأ في وجهها بغضب، وما لبث أن تمكَّن منها وهي تستغيثُ وتحمي وجهها، وهو لا يتحرك أو رَكلَ هذا الطائر ودفعه عنها، رغم أنه كان قادرًا على هذا الفعل، وكلَّما تحرَّك قلبُه وبادر ردعته نفسُه وثَبَّتته على موقفه.

ظلَّ يرمُقُ الديك حتى أتمَّ مَهمَّته، وتبعه بعينيه وهو يخرج من الباب ولُغْدُه الأحمر السخيف يترجرج أمامه. وعلى مسافةٍ من البيت كان رجلان يُطلَّان برأسيهما من وراء ساتر من الطوب، ذو اللِّحْيَة البيضاء وأبو القدم الممدودة، وعندما رأياه أخفيا وجهيهما منه وأحدهما يقول للآخر: مالنا نحن بالكلاب الشاردة، وما الذي جاء بنا أصلًا إلى هنا..

***

لم يعرف الراحة بعد هذا الحُلْم..

أسابيع وهو يتململ، ولم يتوقف عن سؤال نفسه وتوبيخها، وإذا جاء وقتُ النومِ ينامُ مثلما تنام القطط، يغفو دقيقةً ويصحو ثلاثًا.

أَمَّه!

وتأتيه في الحُلْمِ على هذا النحو، وهو قابلٌ مُرحِّب بالإيذاء الذي يقع عليها..

ويتهمونها بأنها هي التي ضيَّعت ابنتها، رغم أنها ضاعت منه هو وليس منها..

أيُّ شيطانٍ هذا الذي يعبث به..

أُمُّه التي لم يعرف أن الدنيا خائنة وبلا خُلقٍ، إلا بعد أن قضت..

أمه التي كانت سِرَّه وهو سِرّها..

ومن فوضى الأفكار والأسئلة التي ليس لها إجابات فقدَ بعض التركيز، فالأمر عند من لا يدري مجرد حُلْم وهلاوس؛ لكن بالنسبة إليه نَغْزَة مِشْرَط في جُرْحٍ لا يزال صاحيًا ولم يُشفَ بعد.

وضاق صدره أيضًا وطبعه الحلو، أخطأ مرةً مع أحد تومرجيَّة المستشفى ومرةً مع أحد الأعيان وتجاوزا، ثم مع الصول خير الرجل الطيب حَلَّال المشاكل، سامحه هو الآخر وعفا عنه، إلَّا أنَّ المعلم حبشي لم يسامح. كان حَذِرًا وحسَّاسًا مع من يرتدون البذلات الرسميَّة بالذات، وإرضاؤهم فرض وواجب عليه، شخط فيه يومها قائلًا:

– وبتغلط في عمَّك خير! آه يا بن (...)، ينعل أبوها المَرَة اللي نفضتك.

لسعت هذه الشتمةُ جُرحَه من جديد، فطاش عقله وكان يحمل صينيَّة عليها بعض المشاريب، رماها في حِجْر حبشي وترك له القهوة وما فيها. طفش إلى الخرابة وأصحابه العواجيز، فالتقَوْه بحفاوةٍ وحاولوا إقناعه

بأن يصبح واحدًا منهم، يضعُ مِخْلاةً على كتفه ويسرح معهم؛ خاصة وأنهم تطوروا الآن ولم تعُدِ البلدةُ مصدرَ رزقهم الوحيد، وأن لديهم مُخطَّطاتٍ وزياراتٍ مُجْدولَةً للقرى والنجوع التي حولنا، غير أنه لم يَستسِغْ ما يقولون جاراهم فقط من باب التسلية وتمضية الوقت.

***

لم يتحمل حبشي غيابَه أكثر من يومين، ساقَ عليه بعض الوسطاء فتمنَّع قائلًا:

– أنا خلاص بطَّلت شُغْل، ويوم وللا اتنين وسايب البلد بحالها.

فلم يأخذوا كلامه على محمل الجد، وقالوا له:

– على فين؟

– أرض الله واسعة، وأنا لسَّه بعافيتي؟

– تبقى زعلان، وزعلك جامد.

– زعلان وللا مش زعلان. آهو.

ونادى على "أبو سِنَّة":

– إنت فين؟ الشاي يا عم خَلِّي الناس تاخد الواجب بتاعها وتِتّكل على الله.

ويحاولون هم:

– هو غَلَّط نفسه ومستعد يراضيك.

فحَكَّ أنفه وسكت..

– وهنخلِّيه كمان يطلَّع لك شهريَّة.

فتدخَّل أبو سِنَّة:

– آهو دا الكلام.

فأوقفه ضاحي:

– والنبي يا أبو سِنَّة تسكت إنت.

ووجَّه حديثَه للوسطاء:

– أنا مَبتكلِّمش عن الفلوس.

– الزباين زَعَّلتك؟

– الزباين ناس محترمة، وكلهم على عيني وراسي.

– أُمَّال إيه؟

– شتيمة الأم والأب.

– بيشتمك؟

– اسألوه، شتيمة الأم والأب عنده مزاج وكِيف.

ويعلو صوته:

– وإلَّا الأُمّ بالخصوص، آه! إلَّا الأم.

وقال أحد الوسطاء.

– ما هو لسانه زِفِر، وطول عمره بيشتم وانت بتستحمل.

– خلاص.. من بعد الليلة إيَّاها...

وأمسك عن الكلام..

– ليلة إيه؟

– لا. مفيش.

وأتوا له بحبشي وراضاه، وقال له أحدهم:

– بس تدِّيلُه حاجه كل شهر.

فأطرق، إلَّا أنهم أشاحوا في وجهه:

– لا. تدِّيلُه.

فقال حبشي:

– خلاص.. خمسة جنيه أول كل شهر.

وتدخَّل أبو سِنَّة مرةً ثانية:

– شويَّة.

فقال ضاحي:

– لا شويَّة ولا كتير أنا راضي، بس إلَّا الغلط في الأم والأب وآديكم شاهدين.

***

14

ورقد حبشي في البيت، بعد أيامٍ من صُلْحه مع ضاحي..

غافلَه كلبٌ وهو راجعٌ من سهرة الحشيش وعضَّه في أَلْيَتِهِ عضةً بالدَّم، ويعطونه الآن حُقنًا في بطنه. وأطفأ ضاحي أنوار القهوة وحالًا كان عنده، سلمه الإيراد ثم عاد وجرجر مقعدًا وجلس أمام الباب.

لم تشغله الحركة الخفيفة التي تقع أمامه، ولا آخر سيارة أجرة قادمة من مصر والناس يهبطون منها، لاحت له أُمُّه بطرحتها وجلبابها الخَشِن وهي متربِّعة فوق الأرض تعدُّ وترصُّ بضاعتها في مِشَنَّة أمامها، إوَّز، بط، دجاج، وتتأكد من أن كلَّ واحدةٍ منها مربوطةٌ بخِرْقةٍ في قدميها؛ كي لا تقفز من فوق رأسها وهي تسير.

وتومض ابتسامةٌ في عينيه وهو يتيه فيها بخياله بعد أن توقفت عن العَدِّ والرَّصّ، وحدَّقت بانتباه في المِشنَّة، كانت إحدى فراخها تكاكي وتصيح بعصبيَّة، فمَدَّت يدها نحوها وهي تقول بصوتٍ لا يُسمع:

- بسم الله الرحمن الرحيم. تعالي. تعالي.

وسحبتها وتحسَّست مؤخرتها بإصبعها، وكأنها فرحت فأطلقتها وهي تهمس بينها وبين نفسها:

- يا دي الخيبة، وكُتّ هابيعها!

مشهد طالما تكرر أمامه صباح كل يوم سبت، وظل على أول قائمة ذكرياته، دون أن تضيع منه همسةٌ ولا حركةٌ ولا تفصيلة، الصياح والجري وراء طيورها من البكور، والتقاطها من أعناقها وأرجلها ووضعها في هذه المِشنَّة.. لُقْمة عيشها ومهنتها.. تسهر على الطيور وتؤكلها وتشربها، وكل أسبوع تلفُّ بها على نسوة البلدة التي استوطنوا بالقرب منها، والخير الذي يجيء هو قُوتُهم ورزقهم حتى الأسبوع الذي يليه. وكانت بعد أن تطمئنَّ إلى أن المِشنَّة امتلأت وبضاعتها جاهزة، تجري بكَفِّها على رءُوسها ولسانها يلهج بالفاتحة والسورتين اللتين لا تحفظ غيرهما، (قل هو الله أحد) و(قل أعوذ برب الناس)، ثم تُوسْطِن الحَوَايَة على رأسها وفوقها المِشنَّة وتنهض بها دفعةً واحدة، وهي تتمتم مُشجِّعةً نفسها:

– يا قادر يا كريم.. بركاتك يا سيدي يا عبدالرحيم يا قناوي.

فلم تكن تعتمد على أحدٍ في الأخذ بيدها، أو تحميل المِشنَّة على رأسها وهي في وضع الوقوف، فلا ضاحي ولا أبوه كانا في حالةٍ تسمح لهما بذلك.

تنادي بعدها على زوجها مرةً واثنتين، لا تزيد، مشوارها طويل وليس لديها وقت للمُناهدة والعطلة. في أغلب الأوقات لم يكن يرد، فهو إما في سابع نومة وفوقه الحِرام أو متقرفص في أي مَطْرَح وكسلان عن الرد.

لا تأبه به، وتقول لضاحي:

– إن حد جاع الأكل تحت الطِّشت، جبنة قديمة وفحلين لِفْت وسطر بَتَّاو.

– مفيش غير جبنة ولفت؟

لا ترد عليه..

وتخطو خطوة، ثم تلتفت إليه مُحذِّرةً:

– أختك هانم عينك عليها، وأول ما تصحَى فَطَّرها ومتخلِّهاش تلعب في الخَلَا.

وتعاود التحذير:

- والدَّحي (البِيض) اللي في الكرتونة، إيَّاك حد يقرب له.

- حاضر.

- دا متباع، وأنا عَدَّاه بالواحدة.

- حاضر. حاضر.

وتبدأ المشوار، إلَّا أنَّه كان يتعقبها بعض المرات..

تجتاز الخلاء والأرض البور التي يسكنون فيها وهو وراءها، وتصل إلى الطريق العمومي الذي يفصلهم عن الأرض الحلوة والبلدة التي تقصدها. كانت مُنَكَّةً في عبور هذا الطريق، حفظته، وما إن تلمح بعض الفراغ تسند المِشنَّة بيدها وتنطلق، وإذا فاجئتها المركبات كانت تتلوى وتتفاداها غير عابئةٍ بالأبواق والشتائم أو ضربات المكابح، تشتمُ وتسبُّ هي الأخرى لاعنةً خاشَهم وخاشَ آبائهم. وتفلت مخترقةً أحواض الزرع التي تملأ الجانب الآخر، تُوغِل فيها وعلى حوافِّ السِّكَك ورأسُها بدأ في الانشغال بمسألة ثانية: العائد الذي تتوقعه، وأقصى حَدٍّ تهبط إليه إذا جادلتها النسوة في الأسعار.

لم تكن هيئتها تدُلُّ على أنها امرأة مكتملة وأنجبت من قبل، فلا استدارات ولا طراوة ولا أيَّة مفردات أنثوية، جلد على عظم على شغت. ومع ذلك كانت صُلبَة عفيَّة، وتعرف أن ثلاثة أرواح معلقة في رقبتها، وإن قصرت

سوف يموتون منها. ولربما كانت تضغط على نفسها لهذا السبب أو أعطاها الله قوةً فوق قوتها، فخطواتُها كانت قويةً واسعة، أقوى حتى من خطوات الرجال، ويداها تروحان وتجيئان بحركةٍ نشطة، وكما البهلوان المِشنَّة ثابتةٌ فوق رأسها لا تهتز، ربما لمسات خفيفة بأصابعها عندما تتقلقل الطيور وتؤثر على وضعيتها. ولعلَّ هذه إحدى الصفات التي أورثتها لضاحي، فقد كانت له مهارات أشبه بمهاراتها وهو يلعب على الحبال في السُّرَادِقات، أو يحمل منقولات العرائس.

وإذا باغتتها الريح فجأةً ودفعت الجلباب بقوة بين ساقيها مُعيقًا حركتها، تميل برأسها قليلًا وتظلُّ تشده إلى الأمام وهو يعاند ويرتدُّ من جديد. وعندما تفشل وتحتار فيه تُؤْثِر السلامة وتهبط إلى الأرض بحمولتها؛ خاصةً بعد أن بدأت الطرحة هي الأخرى تتطاير من أسفل المِشنَّة، وترفرف أمام عينيها.

تعاود المشي بعد أن تهدأ الريح، غير أنها تشعر بأن أحدًا يتعقبها. الاستدارة بالمِشنَّة الملآنة مسألة صعبة، غير أنها تكررها عدة مرات ويزداد الشك في قلبها، فتميل وتلتقط عودًا أو فرعَ شجرةٍ أو حتى طوبةً أو زلطةً تدافع بها عن نفسها. وضاحي الذي يداري نفسه منها، كأنه ارتبك وأحس بأنه المقصود بالسلاح الذي تسلَّحت به، فيوسِّع المسافة التي بينه وبينها أكثر وأكثر، ويتحاشى أوراق الشجر المتناثرة خاصةً الجاف منها،

لا يطؤها حتى لا تسمع خَشْخَشَتها تحت أقدامه وتنتبه لوجوده.

إلَّا أنها تضبطه وتنادي عليه:

– هو انت يا مضروب! كُتّ فاكراك واحد من الأشكال الوسخة.

وتلفُّ أذنه بأصابعها، وهي تصيحُ فيه بغضب:

– وبعدين إيه اللي جابك؟ مش مُوصِّياك على العاجز أبوك والغلبانة أختك.

وتدفعه ليعود، وخطوات وتلتفت فتجده لا يزال واقفًا، فتلتقط حفنةُ ترابٍ وتحثوه بها، وساعتَها يتأكد من أنها مُصمِّمة على التخلُّص منه فيجرى إلى البيت، وتظلُّ هي واقفةً وعيناها عليه إلى أن يعبُر الطريق ويصبح في الأمان.

تعود آخر النهار..

المِشنَّة فارغة وكيسها عَمْران بالفلوس، غير حَبَّات طماطم أو ثمار لِفْت وجزر وباذنجان، اقتلعتها خِلْسَةً من الغيطان التي مرت بها أثناء عودتها.

***

ما كانوا فيه في هذا الوقت، كان نعمةً وحمد وشكر لله قياسًا على أحوالهم من قبل..

فهم ليسوا من أهل هذه البلدة ولا من وجه بحري كله، رحَّالة أتوا من آخر الصعيد، ضاقت بهم الحياة هناك وتململوا من ندرة الزاد، فجاءوا قاصدين اللقمة ومن بلدٍ إلى بلد ومن ناسٍ إلى ناس حتى حطُّوا هنا، بلدة بزمام مركز أبو المطامير.

أُمُّه تقبض على يده وأخته هانم محمولة فوق كتفها، وأبوه عيَّان تَلْفَان ويتوكَّأُ على عصا وراءهم، مريض بالصدر ولا صوت يصدر عنه إلا اللِّهاث، وحشرجة تعقبها دفعاتُ سعالٍ يلتفون أثناءها حوله إلى أن يخرج منها.

في بادئ الأمر ظنَّ الأهالي الذين هنا أنهم شحاذون، ولما أدركوا قصدهم وأنهم مهاجرون ويودون العيش معهم، قالوا: لا مكانَ لكم عندنا، ولا حتى خرم إبرة.

نصحوهم بالعيش في الخلاء، هناك على الجانب الآخر من الطريق، فالدنيا هناك واسعة وممتدة من هنا إلى حدود ليبيا.

وقالوا لهم: وتعالوا لنا كل يوم ابحثوا عن رزقكم، الولد يمكنه العمل في أية شُونَة أو زريبة بالشهريَّة، والأُمُّ أصلحُ شيء لها الخدمة في البيوت.

غير أنها لم تقبل أن تعمل لا هي ولا ابنها في السُّخْرَة عند الناس، قالت: نسكن في الخلاء وأمرُنا لله، أنا أربِّي الطيور وأبيعها، وابني ضاحي يده بيدي ويرعى معي أباه وأخته.

***

15

ليست أُمُّه وحدها التي كانت تشاغله، أبوه هو الآخر.

ولم يأتهِ ولا مرة إلا في هَلَّة كئيبة، الصورة التي كان عليها قبل وفاته بأسابيع، بالقطع له في مخزون ضاحي حياةٌ ووجودٌ وصورٌ أفضل من ذلك بكثير، إلَّا أنَّ الصورة التي كان فيه أشبه بالدُّمَى التي يصنعونها للأطفال، هي التي كانت تُلحُّ وتفرض نفسها: عظام وجهه بارزة وذراعاه وساقاه رفيعة كالفِتَل، والشِّرْز الذي يعلو السروال ساقطٌ حتى رُكبتيه واتساعه مُلْفت، يسعُه ويسعُ واحدًا معه، وامرأته قابضة بيدها على ذراعه، واليد الثانية مُتأهِّبة للحاق به إذا تعثَّر أو انكفأ، فاعتماده كله كان عليها، هي التي تُؤكله وتُشربه، حتى المرحاض لا يقدر عليه إلَّا إذا كانت معه.

أيقظته بصعوبةٍ من نومةٍ دامت عشر ساعات، وتريد الآن وضعه في

الشمس قبل أن تنشغل بمصالح البيت. ببطءٍ وعلى قدَرِ مشيته، تتجه به إلى بقعة مبدورة بالقش بعيدة عن المدخل، إلَّا أنَّه يدق بعصاه رافضًا ويشير إلى بَحْرايَة الباب، فتقول له:

– واللي داخل واللي طالع يعمل إيه؟ يخطِّي من فوقيك!

يدق ثانيةً مُؤكِّدًا موقفه، فيلوحُ الضيق على وجهها:

– لا حول ولا قوةَ إلَّا بالله!

ثم تهاوده:

– هنا! بكيفك، خلاص هنا.

تضعه حيث يريد، ويمدِّدُ هو ساقيه ويظل على هذه الجلسة حتى صلاة الظهر، وكان يغفو أثناءها بالعشرين غفوة، وفي كل مرة يخرج فيها من غفوته يفتح عينيه على آخر اتساعهما غير مُصدِّقٍ أنه نام وصحا دون أن يحس. وكلما شعر بخشخشة بالقرب منه كان يستعد بالعصا، يرفعها عاليًا أو يطرق بها فوق الأرض، مُهدِّدًا أية قطة أو كلب يفكر في الاقتراب منه. عادةٌ دأب عليها، بعد أن هَبَّ مخضوضًا إحدى المرات على جَرْوٍ يلعق قدميه.

وأول ما تستدير الشمس وتتزحزح بعيدًا عنه، ينادي على من بالداخل:

– قَوِّموني، سقعان.

صوته ضعيف ولا يسمعونه عادةً، وهو مستمر:

- إنتوا يا ولاد الكلب، بَتْرِعِش، هَمُوت.

وعندما تجيء إحدى النسوة لشراء بيض أو كتاكيت، تسرع إليه زوجته:

- ما تخُشّ جوه، الوليَّة بتنكسف.

لا يرد، وإن رد يقول:

- أنا مرتاح كده.

- طَبْ استُر نفسك.

وترمي له بأي شيءٍ في يدها يغطي به سرواله وأجزاءَه الحسَّاسة التي ظهر بعضها، ما تُلقيه كان يسقط أحيانًا بعيدًا عن الهدف، وهو من كسله لا يمدُّ يده ويدَعُه كما هو، فيشتدُّ بها الغضب وتغطي هي المكان الذي تقصده وهي تشيح في وجهه:

- يا خويا غَطِّي نفسك، إنت عايز تفضحنا!

***

وتأتي اللحظة التي مات فيها..

لحظة صعبة، وكلما باغتت ضاحي يحاول الخلاص منها؛ غير أنها أحيانًا تكون أقوى منه، تجثُم عليه مثلما تفعل الوطاويط مع فرائسها.

أحواله كانت قد تدهورت، سُعال لا ينقطع تعقبه بصقاتٌ مُخضَّبةٌ بالدم،

وامرأته تفعل كل ما في وسعها، تحشو رَدَّة دافئة في خِرْقَةٍ تزمُّها حول صدره، أو تأتي له بزجاجات دواءٍ للسُّعال من البيوت التي تدخلها، زجاجات استخدم الناس نصفها أو ثلثها وركنوها عندهم، ولتشجعه وتقويه كانت تحكي له حكايات عن أناسٍ كانت أحوالُهم أشدَّ منه وشفاهم الله، وتقول وهي تُمَلِّس عليه بكَفِّها:

– إنت كويس وعال العال! والنبي لأرقيك، تلاقي حد شافك ولا صلَّاش على النبي.

لم يكن يرد، يرفع عينيه إليها ويسكت.

***

في اليوم الذي مات فيه، جمعت طيورها وتهيَّأت للخروج فقال لها:

– ماشيَه؟

– مانْتَ عارف، النهارده السبت.

– خَلِّيكي.. أنا تعبان.

– وناكل ونشرب منين؟

وقبل أن تستدير متجهةً إلى البلدة، أشارت له بإصبعها:

– القُلَّة جنبك هي وقزازة الدَّوَا، وضاحي هيقعد تحت رجليك.

ولحق بها ضاحي:

- على فين؟

- إنت أطرش يا وَلَه، مانتَ كُتَّ واقف وسامع.

- وأبويا؟!

- كلها ساعتين وراجعة.

وعندما ألحَّ:

- جايه، جايه، مش هعوَّق.

وخَلَّفته مسرعةً..

***

ساعةٌ بعدها وأتاه أمرُ الله..

وضاحي ابن الرابعة عشرة، لا حيلةَ له وتؤلمه السَّكَراتُ الأخيرةُ التي تسبق خروج الرُّوح، أخته هانم لا تفهم وتارةً تبكي وتارةً تسأله اللعب معها مثلما يفعلان كل يوم.

مكث بجوار أبيه الميت حتى رجعت أمه، ومن يومها دارت بينهما الحرب، حرب بلا صياح ولا أسلحة، بالأعين والنظرات فقط.

أيامٌ وهو يتحاشى النظر إليها، لا ينظر بالقصد والعمد إلا لضرورة، تتسلل عيناه إليها فحَسْب عندما تكون غير منتبهة، تكون جالسةً أو تتحرك فيرمقُها من الجنب أو الوراء، وعندما تشعر يُشيح ببصره أو قد يركبه

العناد ويجوس فيها بعينيه حتى تُخفضَ بصرها، وإذا حاولت التسريةَ عنه وبالذات عن هانم بقطعة حلوى اشترتها عند عودتها من البلدة لم يكن يذوقها، يعطي نصيبه لأخته.

وهي صابرةٌ تتحمل، وعندما تحسبُ أن عناده قَلَّ بعض الشيء، كانت تشرح وتقول له بأن هذا الذي حدث أمر الله ولا ذنبَ لها فيه، فمن أدراها أن أباه سوف يموتُ أثناء غيابها، فيهزُّ رأسَه بالكذب أنه قدر وفهم، بالكذب فقط، فلم يكن فهم الحياة في هذا الوقت، أو ربما لا ذنب له وهي هُرْمُونات الذكورة التي اجتاحته وبالغت في إفرازاتها؛ إذ كان في ذُرْوَةِ الصِّبَا وقابَ قوسٍ أو قوسين من سخافاتِ المراهقة.

كم عاتب نفسَه بعد أن كبُر على هذه الشطحات التي آلمت أُمَّه، وإن كانت كوابيسُه وأحلامُه المزعجة ظلت تأتيه على خلاف هذا الإحساس، فأُمُّه فيها كثيرًا ما أخذت وضع المذنب، وكأنُّ المراهق الغشيم الذي كان حيًّا في هذا الوقت لم يمُتْ بعد، لا يزال باقيًا في داخل الداخل ويأتيه خِلْسَةً عندما ينام.

لم يَطُلْ أمَدُ هذه الحرب..

أسابيع فقط وارتاحت أُمُّه من الدنيا كلها، أكلتها مَرْكبةٌ تجري على الطريق عندما كانت تعبُره هي وطيورها، فَرْفرَت دقيقةً واحدةً وقضت.

***

16

وشُفيَ حبشي من عَضَّةِ الكلب..

فوجئ رُوَّاد القهوة بقدومه عليهم مُتجهِّمَ الوجه، وفورًا إلى النَّصْبَة يفتشُ في مفرداتها، الملاعق، الأكواب، موقد الشاي، ثم أمسك بكَنْكَةٍ وطفق يتأمَّلها وضاحي يرمقُه بدهشة:

– ما لها الكنكة؟

– وسخة.

ويشير بإصبعه إلى صندوق (بيبسي)، إحدى فتحاته فارغة:

– وفين البيبساية اللي ناقصة؟

- انكسرت.

- تدفع حَقَّها.

ولاحظ ضاحي أن شفتيه ترتعشان والكَدَر يعلو وجهَهُ، فقال له:

- حاضر يا معلِّم حاضر، بس ارتاح إنت وأنا حالًا هجيب لك الشيشة.

وبعد أن جهَّزها له، مال عليه وهو يفرشُ له حجرَ المعسِّل فوق جُذْوةِ النار:

- مالك يا معلِّم؟

فالتفت إليه حبشي دون إجابةٍ وعاد إلى الشيشةِ نَفَس في الثاني، ثم أزاح المِبْسَم فجأةً وهبَّ واقفًا وصفحةُ وجههِ أشد عبوسًا مما كانت:

- أنا مروَّح.

ومن يومها انقطع عن القهوة..

لم يَطأْها إلى أن مات، زوجته انقطعت هي الأخرى. فكُلَّ يوم بعد أذان الظهر بساعة، كانت تأتي وفوق رأسها مِشَنَّة مُغطَّاة بفوطة أو طَرْحة وبها غداء ضاحي، ابنتها عزيزة هي التي كانت تحملها من قبل، ولما كبرت منعها أبوها من الاقتراب من القهوة، أو الخروج أساسًا من البيت.

على مسافةٍ من القهوة، كانت أُمُّ الخيرِ زوجةُ حبشي تجلس فوق الأرض والمِشنَّة أمامها، ويعرفُ هو الميعادَ فيخرجُ إليها. يوم الخميس بالذات هو

اليوم الذي تطبخ فيه وأطباقها تكون دافئة ويَفُحُّ منها البخار ورائحة اللحم، يتناولها منها وعلى وجههِ ابتسامةٌ، وتقولُ له هي بحماس:

– يَدُوبَك أول ما سَلَتّ إيدي من الطبيخ، قلت أوَكِّلك أول واحد، تلاقيك على لحم بطنك من الصبح.

ويحدقُ هو في الأطباقِ بفرحة:

– دا كتير.

– بالهنا، واللي يفيض اتعشَّى بيه.

وتسأله:

– المعلم عامل إيه النهارده؟

– الحمد لله، مزاجه رايق.

أو يقول:

– يعني..

– مَعْلِش، طوَّل بالك عليه.

وفي يومٍ من الأيام التي سبقت غيابها، أردفت بصوتٍ كالهمس:

– معذور، شايل هَمّ عزيزة.

– ما لها؟

فشردت بعينيها:

- لا لا، ولا حاجة.

وتوجَّس هو:

- يكونش حد مِتقدِّم لها؟

- لا حَدّ ولا مِحْتَدّ، ربنا يسوِّيها من عنده.

- مالِك يا خالة؟

- الحمد لله.

- طَبْ أنا كُتّ عايز أكلِّمك في سهراية كده؟

فأشاحت وهي تستدير منصرفةً:

- مش وقته.

- سهراية عني وعن عزيزة، وآهو اسمعي مني.

- بقولَّك مش وقته.

***

غلبانة أو هذا الذي يبدو عليها، كما أن فيها من أُمِّه، نفس الطول ونفس النَّحافَة، وهي هي الطرحة والوجه المهموم.

والشيء اللافت، بالنسبة إليه بالذات، أنه رآها في المنام عدَّة مرات، وأحلام دسمة بالثلاثة والأربعة مشاهد، ومُبهجة مريحة وطريفة أحيانًا، وكان يصحو منها متفائلًا مقبلًا على الحياة، وليست كالدهاليز المعتمة والهلاوس التي تصاحب أُمَّه في الأحلام.

حُلْمٌ من هذه الأحلام جمع بينها وبين أُمِّه، ووقف حيالَه حائرًا..

فكأنهما معًا في الأرض الفراغ التي خلف القهوة، بلا طُرَح تغطي الرأس ولا هَمَّ يعلو الوجهَ ولا مِشنَّات ولا جلابيب، بملابس النوم، وتلعبان بكرة (شراب)، تتصايحان وتمزحان وتقذفانها لبعضهما البعض مثلما يفعل الصِّبْيَة عندما يلعبون، والذي أثار دهشته وربما استغرابه، ليس في الحُلْمِ إنَّما بعدها، أن كُلًّا منهما كانت تنادي على الأخرى ليس باسمها، بل باسم صاحبة النداء، وكأنهما تبادلتا الأسماء..

حكى ما رآه لرفاقه العواجيز، فقال له حافظ مستعجبًا:

– غريبة! مش أُمَّك ماتت من زمان، إيه بقَى اللي هيعرَّفها إنك هنا وتجيلك القهوة كمان؟!

وجاد هو الآخر ضرب كفًّا بكَفّ:

– يا سنة بيضا! وكمان متلخبطين في أسامي بعض، تكونش إنت اللي مخدتش بالك يا ضاحي؟

وأبو سِنَّة يرد عليها بضَجَر:

– يا خُويَا إتلهي منَّك له، وخلِّيكُوا في كوز الدُّرَة اللي انتوا عمَّالين تنهشوا فيه زَيّ الكلاب السعرانة.

***

علاقتُها به أشبهُ بعلاقةِ الأُمِّ بولدها..

فبعد التحقيق السريع الذي أجراه معه حبشي يوم وصوله البلدة، أخذه معه إلى البيت لاستكمال باقي الفحوصات، فضلًا عن أنه لم يأمَنْ لمبيتهِ في القهوة من أول يوم.. فمن يدري؟! ربما سرق محتوياتها أثناء الليل وهرب، فحبشي لصٌّ قديمٌ ويفهمُ في هذه المسائل ومن غير المعقول – في ظَنِّه – أن يلعبَ عليه غِرٌّ مثل هذا الولد.

فرش له حصيرةً في ركن من أركان الحوش ووضعه تحت الميكروسكوب؛ حتى إنه كان يعدُّ عليه المرات التي يدخل فيها المرحاض، وكل صباح يأخذه في يده إلى القهوة ويعود. عشرة أيام على هذا الحال، وبعد أن اطمأنَّ سمح له بالمَبيت فيها وبالشروط التي وضعها. أما زوجته فكانت رفيقةً به، ومن أول ما دخل عليها مكسورًا مُطَاطِئَ الرأس تحركت فيها غريزة الأمومة، وطفقت تُنصِتُ لحكايته والألمُ بادٍ على وجهها، وعندما تطرَّق لوفاةِ أُمِّه وأبيه ربَّتت عليه والدمع تترقرقُ في عينيها:

– كبدي يا بني! وكل دا شُفته بعينك.

وبعد أن غادر واستقرَّ بالقهوة، كان يأتي لها كُلَّ أسبوعٍ فتدَعُ له الحمَّام يتحمم وتغسل له ملابسه. لم يستسغ حبشي مسألة الحمام هذه، كان يُسأسِئ ويُبدي اعتراضه، فتقول له:

– أُمَّال يعني يروح يستحمَّى في الرَّشَّاح!

وتحاولُ استمالتَه:

– دا عَيِّل يتيم، طَبْ يستحمى فين؟ وللا يغسل هدومه إزاي؟ يا ترى بقى يقعد جنب النسوان اللي بتغسل هدومها على حرف الترعة!

وتسرَّبَ هذا الإحساسُ إلى ابنتها عزيزة، تعلَّقت به هي الأخرى بدا في عينيها كما لو أنه أخوها الكبير أو عَمٌّ أو خال؛ خاصةً الفترة الأولى التي قضاها عندهم، حيث كانت أُمُّها تدَعُها له ليرعاها ويشغلها أثناء انصرافها لشئون البيت. كان عُمرُها من عمر أخته هانم، ولا تكفُّ عن الضحك مثلها، وكَمْ من مرَّةٍ وهي تلعب أمامه تذكَّر أختَه، فقد راحت هي الأخرى. راحت في اليوم الذي ماتت فيه أُمُّها، ففي الزحام والإسعاف والناس ومركز "أبو المطامير" الذي قضى فيه يومًا بأكمله غفل عنها، لم يكتشف غيابها إلَّا اليومَ التالي، وسأل ولفّ واستجار ولا فائدة، خطفتها الضواري؟ تاهت في الخلاء؟ انشقَّتِ الأرضُ وابتلعتها! لم يَرَها بعدها.

كما لم يدُمْ إحساسه اللطيف البريء تجاه عزيزة طويلًا، كان فقط

عندما كانت صغيرةً وهو لا يزالُ صغيرًا مشاعره صافيةٌ لم تُعكِّرها بعد شوائب الشهوة والذكورة، وعندما كبُرتْ وبدا له حُسْنُها ودلالُها نظر لها من منظار آخر، تحولت مشاعره وأخذته إلى طريق الذَّكَر والأُنثَى، تمنَّى لو ارتبط بها وأكمل معها حياته، وإن كان هذا ليس مَردُّه حُبٌّ وهُوًى أو هي خطوة خطاها قلبه من تلقاء ذاته.

لم يكُنْ حُبًّا وإن شُبِّه له ذلك، كان شيئًا مختلفًا، شيء أعمَق وربما أوسَع وأرحَب من الحب الذي نعرفه، كان احتياجًا، ولعلَّ الاحتياج إذا دام واتصل تولَّدت عنه محبَّةٌ كبيرة، والعكس ليس دائمًا صحيحًا.

أحسَّ بأن وجودها في حياته ضرورةٌ لا خيار، كمن يكدح ليسدَّ حاجته وإلا هلك أو الغريق الذي يتعلق بفرع شجرة تطفو، فالضياعُ الذي كان فيه وكونه مجرد قشَّةٍ لا وزنَ لها، فلا أمٌّ ولا أبٌ ولا خالٌ ولا عَمٌّ أو أخٌ وأخت، مجرد علاقات على السطح أساسها التسلية وتمضية الوقت كعلاقته بالعواجيز، ولا حتى جذور فبلدته في جوف الصعيد لا ذكرى له فيها، والزمن الذي قضاه في "أبو المطامير" مؤلم عابس؛ كُلُّ هذا قبل غريزة الذكورة أو رُبَّما في رِكابها، دفعه إلى أن تكونَ له أنثى وحياةٌ وسلسال. والأنثى عزيزة بالذات، لا أنثى غيرها، ولسببٍ يخصُّه دون غيره، فقد تمثَّل فيها أختَه هانم التي ضاعت.

فأختُه لم تضِعْ من أُمِّه بل منه هو، وهو يعلم ذلك، عقله الظاهر الحاضر

ذو المنطق يعلم، حواسُّه تعلم، الناس تعلم الدنيا كلها تعلم، عقله الباطن المستتر هو الذي يُنكر ويرفض هذه المقولة! ويُجاهرُه بها في هلاوسه وأحلامه. غير أن شيئًا آخر، شيء في النفس خارجٌ عن سلطانه ولا هو ولا غيره يعرف كُنْهَه أو أين يوجد، هو الذي حرَّكه تجاه عزيزة وأوحى له بأن بارتباطه بها كأنَّما عثر على أخته الضائعة.. حيلةٌ لغُدَّةٍ أو خليَّةٍ أو لبعضٍ من هذه أو تلك، تكبح بها مثيلاتها التي تطرَّفت ومَلَكتْ عليه هلاوسه وأحلامه، ولتلطف وتُخفِّف الوطأةَ عليه في الوقت ذاته، وتَحُولُ دونَ وقوعهِ في حُفرٍ أو تَشتُّت.

وكل هذا وهو لا يشعر، صراعاتٌ تجري فيه ورسائلُ بين الظاهر والباطن، وفي الأحلامِ ألغازٌ وغموضٌ وإيحاءاتٌ لا يدري معانيها، لا يدري سوى بأنه يريد عزيزة، لا يدري سوى بالمُحصِّلة والنتيجة، أما ما أوصله إليها فقد وقع بمعزلٍ عن وعيه وإدراكه، فلا البواعث ولا الأفكار -المَخْفيُّ منها بالذات- تُرَى وتُشاهَد واستنباطُها مستحيلٌ على مسكين مثل ضاحي.

والمشكلة الأخرى أنه رغم إصراره عليها كان يستكثرها على نفسه، فالبنت دخلت المدرسة وهو عاجز يجهل القراءة والكتابة ولا يعرف الحساب إلا بالعَدِّ على الأصابع، كما كان حَيِيًّا لا يستطيع التصريح وكلما بادر وقال تعثَّر لسانه وتوقَّف، وإذا تشجَّع وحاول كانت أُمُّها تغيِّرُ مسارَ الحديث،

في وضعٍ حَرِج، تعرف من ابنتها أنه لا يردُ لها على بال، فبالنسبة إليها مجردُ شخصٍ يدخلُ عليهم ويخرجُ ليس إلَّا، صحيحُ أن مرتبته تعلو مرتبة الخادم لكنَّه في النهاية خادم.

***

17

خمسةُ أيَّامٍ على انقطاعِ حبشي وزوجته عن القهوة..

فشعر ضاحي بالقلق، كل الذي ورد على خاطره أن عزيزةَ مريضةٌ بمرضٍ شديدٍ أو جاءها عريسٌ بالفعل وأمُّها تداري عليه، كما أراد أن يحسم أمره، يتحدث مع أمها وأبيها مباشرة بدلًا من الإشارات والتلميحات التي لا تأتي بنتيجة، وإن كان في الأمر عريسٌ كما ظنَّ، وهم وافقوا، سيدَعُ لهم القهوةَ والبلدةَ كلَّها.

طرقَ عليهم الباب..

البيتُ أشبهُ بالمأتم، طقوسُه طقوسُ المواجع، كله حزين وعلى وشك

البكاء، بل وحتى ضوء النهار محجوز في الخارج ولم يسمحوا له بالدخول، فالشبابيكُ والأبوابُ كلها مغلقة، وسُكَاتٌ في سكات، فلا حِسّ ولا حركة أو حتى إوزَّة أو دجاجة تمدُّ عنقها وتصيح، كلها محبوسة في أعشاشها. وأُمُّ الخيرِ تجلس على فروةِ غنمٍ بالقرب من الغرفةِ التي تنامُ فيها هي وزوُجها، بابها كان مواربًا، مجرد همسة، وأتت منه سعلة واحدة وصوت (مُلَّة) السرير من جَرَّاء تقلُّب حبشي عليها، ثم عِدَّة سعلات فيما بعد.

المرأةُ وجهُها غماقتُه من غماقةِ رَمَادِ الفرن، ورجفةٌ بجفنِها الشمال تأتيها كلما توترت، رفعت رأسها إلى ضاحي ووسَّعت له بجوارها.

– واقف ليه؟ ما تقعد.

– إيه! مالِك؟ وكمان عينك بترِفّ

– لا. مفيش.

– والمعلم؟

– نايم.

– يعني خمس سِتّ ايَّام ولا حَدّ شافك ولا شافه.

– ظروف.

– ما ترسِّيني يا خالة إعملي معروف.

– الحمد لله، ومَعْلِش أنا راسي واجعاني وداخلة أغمَّض عيني شويَّة.

وشرعت في النهوض، فانصرفَ أشدَّ قلقًا مما كان.

***

أيامٌ وانتصفَ شهر كياك، فأمطرت الدنيا وأوحلت الشوارع..

وفي هذا اليوم بالذات أغلقت القهوة مبكرًا، فمن بين أفرع الكافور وأعواد الحطب التي تُظلِّلُ السقف تسلَّلت حَبَّات المطر، خفيفة أول الأمر، غير أن الزبائنَ لم يتحملوها، نقرت أنوفَهم وآذانَهم وبهدلت المداسات والطواقي فتململوا وخرجوا دفعةً واحدة، وفرك ضاحي يديه ووارَبَ الباب.

خَلَتِ الشوارع تقريبًا رغم أن صلاة العشاء لم يمضِ عليها سوى نصفُ ساعة؛ حتى أصحاب العنزة المشاكسة – ملوك السَّهَر – تربَسُوا بابهم، ولا ظهر العواجيز من بعد صلاة العصر، أو هناك علامة تُنبئُ بأن الدوريَّة سوف تخرجُ الليلةَ كالمعتاد، فحسبما سمعنا أوعز عساكر السواري لضابط النقطة، بأنَّه إن خرجَ بهم سوف تنكسرُ رِجْل فَرَسِه أو تُبطُّ في الوحل ولن تقوم. قالوا له ذلك على سبيل النصيحة وأن قلوبهم على الدَّوابّ، وفي الحقيقة هم – وليست الدواب– الذين كانوا يودون الإفلات من هذا الجو الرَّذِل. استساغ الضابط كلامهم، وأرسل إشارةً إلى المركز بهذا المعنى، ولمَّا طال انتظارُه وتأخر الردُّ اعتبر السكوت دليلًا على الموافقة، وذهب إلى سكنهِ

والعساكرُ من خلفهِ يتغامزون فيما بينهم.

وعاوَد ضاحي فركَ راحتيه للمرة العشرين وتَبشْنَق بتلفيحةٍ حول رأسه ورقبته، ثم قعى على حجر بالدِّرْوَة التي بمدخل القهوة.

الدنيا أمامه فارغةٌ ليس فيها نفرٌ واحد أو حتى قطةٌ أو كلب، وزَخَّاتُ المطرِ زادت وتتجمع في بِرَك متناثرة، وما إن تَفِضْ تنحدرْ في مسارات ونزانيز متجهة صوبَ القهوة، ما تلبثُ أن تتحولَ وتصبُّ في دُحْدِيرةٍ على يسارها. وثلاثُ ضفادعَ تتقافزُ وراء بعضها البعض، وبوثبةٍ واسعةٍ ألقت بنفسها في هذه الدحديرة وبدأت في النقيق، وكلما شعرت بحركةٍ ولو خفيفةٍ من ناحية ضاحي كانت تسكت، وعندما يسكن وتموت حركتُه تتوهَّمُ أنه غفل عنها وتبدأ من جديد. وهو بالُه خالٍ مما في رءُوس الضفادع، فلا رآها ولا شعر بوجودها من الأساس، كان ملخومًا في حسبةٍ يحسبُها في دماغه، أخرجَ الليلةَ عشرين طلبًا وليس في جيبه سوى حَقِّ ثمانيةَ عشرَ، فمن أين جاء هذا الغلط؟!

***

وربع ساعة أو أقل وفوجئ بـ"أبو سِنَّة" قادمًا نحوه، وفي ذيله الكلب الذي سبق وأن تعاركوا معه، يبدو أنهم تصالحوا!

الرجل تجاوز السبعين بمسافةٍ والدنيا صقيع ووحلة، ومع ذلك كان

مستعجلًا ويُسرع في خُطَاه، وعندما وصل مد ضاحي يده إليه وأجلسه:

- تعالى! اقعد اقعد.

جلس على حجرٍ قُبالَته وتمدَّد الكلب بجوارهما، وضاحي لا يزال يقول:

- وأنا اللي كُتّ بقول الجماعة زمانهم ناموا، دا حتى الداوريَّة...

فقاطعه أبو سِنَّة:

- عارفين عارفين، جانا الخبر، كله روَّح واتغطَّى باللِّحاف.

وبصوتٍ كالهمس، وهو يميلُ بعنقه تجاه ضاحي:

- أنا ماجَبْنِيش إلا الشديد.

- خير؟

- البِتّ حِبْلَة!

- بِتّ مين؟

- عزيزة!

- عزيزة مين؟

- عزيزة بنت حبشي..

فدفعه ضاحي في صدره:

– عزيزة بتاعتنا! اخرس اخرس، عيب.

وزام الكلبُ في وجه ضاحي، فأسكته أبو سِنَّة ثم أشاح بيده:

– حيلك حيلك ياسي ضاحي! دا البلد كلها عارفه، وأنا أوّل ما اتخمَد حافظ وجاد قلت أجيلك.

فسرح ضاحي بعينيه:

– يكونش الكلام ده طالع من بيت المحروقي وللا من عند أبو جازية الوسخ، دي أكتر ناس بتكرهه.

فمال أبو سِنَّة يكْحَتُ الوحلَ العالقَ بالمركُوبِ الذي يرتديه:

– يا خُوِيَا كل الناس بتكرهه، ملوش حبيب! بس في دي بالخصوص الكلام دا طالع من عند مبروكة الدَّايَة.

– يا بنت الكلب يا مبروكة! والله لَمِنْ بُكرَه الصبح...

فقاطعه أبو سِنَّة:

– وانت محموق كده ليه؟

– مش دُول زَيّ أهلي!

فرمقه أبو سِنَّة رمقةً ماكرة:

- أهلك! وللا يكونش كان في دماغك حاجة تانية؟

فردَّ عليه بغضب:

- قصدك إيه؟

- لا قصدي ولا قصدك، أنا عايزك تروَّح وتطمِّن.

وكأن ضاحي أدرك ما يرمي إليه أبو سِنَّة، غير أنه لم يشأ معاتبتَه الآن، استرسلَ في المصيبةِ التي وقعت:

- يعني عايزني أعمل إيه؟

- تروح وتسأل.

- أروح! دا أنا لو فتحت حَنكِي بكلمة كان عَمّ حبشي دبحني.

- وإنت مالك بيه، اسأل أُمَّها، ماهي واخده عليك وعاملاك ابنها.

وضاحي يتمتم مُكلمًا نفسه: أسألها إزاي بس يا ربِّي.

***

من الفجر كان عندها..

- صحيح الكلام ده يا خالة؟

ويتربَّع أمامها متحاشيًا النظر إلى عينيها، هي الأخرى تتحاشاه وتُقلِّب عُقلَة حَطَب بين أصابعها. وصمت. صمت طويل، أنهته بقولها:

– البَخْت لمَّا يميل..

ثم تطفر دمعةٌ من عينيها:

– مصيبة يا بني مصيبة، وأنا بالخصوص اللي حشوف المُرّ.

– يعني..

فتسكت.

– وعرفتوا الوسخ ده؟

– غلبت يا بني غلبت.. مش عايزه تنطق.. وأبوها علَّقها في السقف، وبرضه مفيش فايدة.

وتُسقط عقلة الحطب من يدها، فتهمُّ بالتقاطها وتقولُ وعيناها لم تلتقيا بعينيْه بعد:

– كل اللي قالته إنه مش من هنا.

وتضيف بصوتٍ كالهمس:

– مش من هنا إزاي؟!

وتذهب بعينيها إلى ضاحي:

– يمكن يكون جِنّ وللا عفريت واتصوَّر لها إنسان!

ولا تستسيغ ما تقول:

– لكن إزاي؟ جن إيه وللا عفريت إيه! دا واحد ابن كلب فَلَاتي ومعندوش دين.

– وهي فين؟

– مِتلقَّحة جُوَّه.

– طَبْ اخُشّ اشوفها.

– لأ، إلَّا دي، دا كان عمك حبشي يقطَّعني.

– وناويين على إيه؟

– وهو أنا في إيدي حاجة.

وتشير بسبَّابتها إلى الغرفة التي ينام فيها حبشي:

– قاطع الزاد يا ناري بقاله خمس ست ايام.

– هدخُل له.

لم تُعلِّق.

***

سعل خفيفًا وهو يتخطَّى عتبةَ الباب، وكان حبشي راقدًا فاعتدل مُطيحًا بالغطاء:

- سلامتك يا عَمّ حبشي؟

فحاول التحرُّك بمؤخَّرته ليستندَ بمِنْكَبيْه إلى عارضة السرير، غير أنه لم ينجحْ فأسرعَ إليه ضاحي وأخذ بيده، رَبَّتَ حبشي بعدها على السرير عدَّةَ مراتٍ ففهم أنه يدعوه للجلوسِ إلى جواره، فصعد وجلس:

- كل حاجة ولها حل، وبُكرَه تفرج.

فشعر حبشي بأنه يعرف، أكيد يعرف، فإن لم يكن من امرأته فمن الناس..

فهل الناس سوف يسكتون، لعنةُ الله على الناس وأبو الناس، أكيد عَرُّوه وفضحُوه وشَرَّحُوه..

كلاب ولقيت رِمَّة مُلقاة بعُرْضِ الطريق، فما الذي تفعله؟ لن تتوقف عن الشَّمْشَمَةِ والنُّبَاحِ حتى يظهر لها صاحب.

ليس له أحدٌ يشكو له همَّه، سوى أخيه دياب..

لكن أين هو الآن؟

مسجون، هربان، لا يزالُ في كفر الشيخ، كل الذي تربطه به قُصاصة

ورق مُدوَّن عليها نمرة تليفون، وكل شهرين أو ثلاثة يتكلمان، إما أن يتصلَ به دياب على تليفون الشيخ سطوحي البقَّال، أو يتصل به هو من هذا الرقم.

فمع من يتكلَّمُ الآن؟

مع ضاحي، ولِمَ لا.. ففي الأول والآخر الولد غلبان وسَتْر وغطاء عليه، عِشْرَة عُمْر وهو الذي رَبَّاه.

يريد أن يفتحَ له قلبه، يحكي له الحكاية ويسأله عن التصريف، لكن كيف؟

ثقيلةٌ على لسانه، وإن قال فما الذي يقولُه وما الذي يُخفيه..

وعلى غير توقُّعٍ لم يستطعِ السيطرةَ على نفسه، دخل في نوبةِ بكاءٍ ونهنهة، وضاحي يحتضنه ويقبِّل رأسه ويديه وبعباراتٍ متلاحقةٍ يقول له: إنَّه ابنه وصبِّيَّه وخادمه وأنه تحت أمره فيما يأمرُ به.

وتدخلُ زوجةُ حبشي على الصوت، فيبادُرها بصياحٍ غاضب:

– كله مِنِّك، لو مفتحه عنيكي مكنش دا جَرَا.

– الله يسامحك.

– ما كان أخويا دياب عايزها لابنه، عايز يستَّرها ويجوِّزها لهلال، إنتي اللي نَطِّيتي فيها.

ويعطيها ظهره، وبصوتٍ مخنوق:

- سيبوني دلوقتي.

وقبل أن يتركاه ويواريها الباب، سمعاه يقول:

- سيبوني يا ناس، سيبوني أدفنها في الأرض وللا أغرقها في الرَّشَّاح.

***

18

لم تَطُلْ رقدةُ حبشي في السرير..

هَبَّ ذات صباحٍ وخرج، زوجتُه كانت هناك على عتبةِ البابِ الخارجي، طرحتُها ملمومةٌ فِي حِجْرها وساقاها ممدودتان أمامها. من أول ما لاح النهارُ وهي تجلسُ هذه الجلسة، حتى الإفطار لم يرِدْ لها على بال، على لحم بطنها منذ اللُّقْمَة التي أكلتها أمس على الغداء، وهي التي كُلَّ يومٍ في هذا الوقت تكون أكلت وشربت وراحت وجاءت وبرمت البلدة برِجليها.

رمقتهُ خطفًا، وعندما شعرت بأنه يتأهَّبُ للخروج لَمَّتْ ساقيْها لتفسحَ له الطريق، دون أن ترفع رأسها أو تسأله إلى أين، اجتاز البابَ هو الآخر دون أن يلقي عليها التحية. يومان وهما على هذا الحال، الكلمة على قَدْرِ

أختها، وإن أطالا فلتبادل الاتهاماتِ بأن كُلًّا منهما سبب النكبة التي حلَّت بالبيت.

لا تعرف ما الذي يُخطَطُ له..

هل سوف يتصل بأخيه دياب؟ أم هو الذي سوف يقوم بالتنفيذ؟ وإن كان فمتى؟ اليوم.. غدًا.. أو بعدَ غدٍ على الأكثر، فالتنفيذُ في هذه الأمور لا يطولُ عادةً.

تستبعدُ الاحتمالَ الثاني، فحبشي لا يستطيعُ أن يفعلها بنفسه.

زوجُها وتعرفه..

هيئةٌ وشاربٌ وسلاطةُ لسانٍ ليس إلَّا، وطالما استغربت أنه كان واحدًا من أبناء الليل، وإذا مشى لا يمشي إلا في السِّكَك الشمال.. هي أدرَى الناس به، عشرة خمسة وعشرين سنة، لَتَّتْهُ وخَبَزْتْهُ وعَجَنْتْهُ، لَمْ يَعُدْ حبشي الذي كانوا يخيفون به الأولاد الصغار، المجرم القرَارِي هو دياب، كافر ابن كافر لا يعرف الرحمة، ولو وصله الخبرُ فقُلْ على ابنتها السلام، مخنوقة ومرميَّة في الخلاء، أو قتيلة ومحدوفة في الترعة.

حدث ذلك مع أخريات، عَذارَى حملن في الحرام، فمن ينسى نرجس بنت السحرتي أو عواطف بنت الششتاوي، وغيرها وغيرها.. فالكلام لا هو كلام سهاري، ولا هي (حواديت) سمعتها من أُمٍّ أو خالة، شافت بعينيها.

فما إن يلمحوا جوالًا طافيًا على سطح الماء حتى تخرجَ البلدةُ كُلُّها، عيالها ونساؤها قبل الرجال، وإن كان أذان المغرب قد فات وحلَّت الظُّلْمةُ، كانت كُلُّ جماعةٍ تحملُ في يدها فانوسًا أو كلوبًا.

الجوال مزموم من أعلى بدوبارة أو حبل ومنتفخ من عند البطن، وباقي التضاريس تقريبًا ظاهرة، البَلَل يكشفُها هو والثقوب التي لم تعد تتحمل تخشُّب الجُثَّة، ونفذت منها إصبعُ يدٍ أو خُصلَةُ شَعْر.

يعرفون الراقدة فيه، ينتظرون قدومها منذ أيام، فلانة بنت فلانة، حكايتها في كل بيت ومن أول ما غابت يتوقعون أن تَقِبَّ لهم من الماء. ينظرون لبعضهم البعض دون أن يتكلموا، ولأن الساعة ساعة ستر يتشجع رجلان ويخوضان في الماء، يسحبان الجوال برفقٍ هو وكل ما علق به، أعشاب، طحالب خضراء، أو ربما جِيَف وأوساخ أتى بها من بطن التُّرعَة. وأول ما يشقُّون الجوال بالسِّكِّين ويُخرجون الجثةَ تبدو تقلُّصات حول الفم المفتوح وبكامل الوجنتين وتَقوُّسات بأصابع اليد والمِرْفقَيْن، آثار وبقايا صراع سبق هذه المِيتَةَ الصعبة، ورانَ على صفحةِ الوجهِ عدمٌ مخيف، فليس للعدم من معنى ولا وصف سوى الحال الذي يكون عليه الوجه.

والنسوةُ الجالساتُ فوق الأرضِ وبدافعِ القهرِ قبلَ الفضول، يمدُدْنَ أعناقهن وينظرن ومنهن من يجذب بصرَها الجلبابُ الذي على البِنيَّة، فرغم الطين وطمي الماء العالق به عرفته، تُتَمْتمُ بصوت كالبكاء:

– يا حسرة عليكي يا بنتي.

ويستعيذ الرجال، ومنهم من يرفع سَبَّابَته عاليًا ولسانهُ يلوكُ بأدعيةٍ واستغفاراتٍ أو يمسحُ دمعـةً من التـأثُّر، ولا تستطيع إحدى العجائز أن تملكَ نفسها، تصيح بأعلى ما فيها:

– بتستعيذوا من إيه يا كَفَرة! يا رجَّالة يا صنف ملعون! إنتوا اللي بتغووا البنات وبعد كده بتقتلوهم، روحوا مِنُّكم لله.

وينطلقُ الصُّرَاخُ والنُّوَاح..

تهبُّ النسوة واقفاتٍ صارخاتٍ ويُشِحْن في الهواء بطُرَحهن أو مناديل سوداء، يُحِلْن المكان إلى مناحة، العاقلاتُ منهن كُنَّ يَشْغلن الصغار الذين في أيديهن أو على أكتافهن، وبطُرَحهن وأَكُفِّهن كُنَّ يغطين عيونهم كي لا يروا هذا المنظرَ الكئيب.

فهل سوف ترقدُ عزيزةُ هذه الرَّقْدَة، لن يفعلها سوى دياب لو أتى..

الخيطُ الوحيدُ الذي يجمعه بحبشي هو قُصاصةُ الورقِ المُدوَّن بها رقم التليفون، من دونها لن يصل إليه، فحبشي بليد عشرين سنة والقصاصة معه ولم يحفظِ الرقمَ إلى الآن..

لكن كيف تُمزِّقها، تحرقها، أو حتى تُكوِّرها وتبتلعها؟! فالقصاصةُ في محفظتهِ والمحفظةُ في جيب الصديري وهو حريصٌ عليها حرصَه على رُوحه.

***

لم يَطُل بقاء أُمِّ الخيرِ وحدها على عتبة الباب..

فما إن غادر حبشي حتى تسلَّمتها النسوة، وهات يا كلام ولَفّ ودوران أو دخول من الشبابيك، وللإنصاف هُنَّ معذوراتٌ فمن أول ما شاع الخبر وغُدَدُ الفضولِ تَنْهَشهُنَّ نَهْشًا.

الأخبار التي عندهن أكيدة: البنت غلطانة وتستحق حَشّ رقبتها، لكن من الذي فعلها؟

لا يعرفن..

وهذه تفاصيلُ لا يستطعنَ التغاضي عنها، ومن دونها تصبح الحكاية ماسخة لا طعم لها، فأين أصل وفصل الحكاية، أين الرأس؟ وأين الساقُ والبطنُ وباقي المفردات؟

الخبر وعرفنه، ويومًا بعد يوم راحت حلاوته، المتعة في التفاصيل، فمتى وقعت هذه الفعْلَة؟ بالليل أم النهار، وهل مجرد غلطة؟ أم كان غرامًا ولقاءاتٍ وهُنَّ اللائي كُنَّ نائماتٍ على آذانهن!

وأين؟ في البيت، في الغيط، أم في خرابة من الخرابات. ومَنْ هذا الخسيس؟ من هنا من البلدة، من الكفور والعزَب التي حولنا، أم أحد الأغراب؟، أفندي من أفنديَّات المدرسة، أو واحد مِمَّن يرتدون قمصانًا وبناطيل ويعملون في الجمعيَّةِ الزراعيَّةِ أو الوحدةِ الصحيَّة؟، وبرضا البنت أم غصبًا عنها؟

فبعد أن يسحبُ الرجالُ الدوابَّ ويتجهون إلى الغيطان، كان الجوُّ يخلو للنسوة ويجتمعن في أيِّ بيتٍ من البيوت ليطرحن هذه التساؤلات،

وكُلُّ واحدةٍ تحكي ما سمعته أو حتى تأتي بكلام من رأسها، وآخر القعدة يُسَأْسِئن ويَقُلْن:

– ربنا يستر علينا وعلى ولايانا.

ومنهن مَنْ تتشفَّى في حبشي:

– أعوذ بالله! راجل ناقص ويامَا عمل كل عَمْلَة وأختها.

فتلقَى معارضةً من أكثرِ من واحدة:

– يا ساتر عليكي يا أُمّ زكي! هو صحيح زَيّ ما بتقولي، بس مش لحد الجُرْسَة والفضيحة.

ومن تميل على أُذُن جارَتِها وتُحذِّرها كي تديرَ بالَها على ابنتها، فتردُّ عليها هذه الجارةُ بغضبٍ ويداها تُشيحان في وجهها:

– إخص عليكي يا حاجَّة محاسن! لولاش إنك ست كبيرة كُتّ عرفت شُغلِي معاكي.

وتسكتُ عدةَ دقائق ثم تكتشفُ أن ما قالته لا يكفي، فتنغزها في رُكبتها وتعاود من جديد:

– عيب على شعرك اللي شاب، اقعدي عِوْجَة يا حبيبتي بس اتكلمي زَيّ الناس، أنا بنتي متربيَّه وعارفة الصَّحّ من الغلط.

***

وليستكملن هذه التفاصيل، بدأنَ في التردُّد على أُمِّ الخير..

لا يذهبن إليها في حشد، فمن هذه التي تقعد وسط هذه اللمَّة وتتكلم عن ضَنَاها، فكل شيء له حدود، حتى العاهرات يستحيين ولا يُفصحن عمَّا يدور وراء الأبواب المغلقة. يذهبن فُرادَى أو اثنتين اثنتين، وقد تتشعبط فيهن ثالثة فيسمحن لها إذا كانت حبيبةً من الحبيبات، ينتظرن خروج حبشي ويكبسن عليها.

الكلامُ حسَّاسٌ ولا يعرفن كيف يبدأن، السؤالُ المباشر أمرٌ مستحيل وهن لسن ساذَجات حتى يدخلن عليها من هذا المدخل، قطعًا سوف تغضب وربما تكرشهن أو تخلع لهن المداس. المسار الرأسي وعبارة وراء الثانية أمر صعب هو الآخر، فأكيد سوف تفهم وتأخذهن لسكك بعيدة وتعيدهن إلى المربع الأول من جديد. كلامهن يأخذ مساراتٍ أفقيَّة، كلمة من الشرق وكلمة من الغرب، سهاري وحَكَاوٍ بين نسوة يتسلَّيْن، وكل برهة يقفزن قفزة ولو صغيرة إلى الأمام، وليس مُهمًّا الوقت، ما أكثره، فما الذي وراءهن! فحتى يلففن الحبل حول رقبتها ويسحبنها لا بُدَّ من الصبر وإطالة البال.

يكلِّمْنَها عن الحاج سنوسي أو المعلم دربالة الذي ضيَّع نصف فدان على زواج ابنته، أو عن الدودة التي بهدلت القطن هذه السنة، ثم يباغتنها بالسؤالِ عن المحروسةِ ابنتها:

– بخير؟

فتومئ رأسها، مؤكِّدةً على أنها الحمد لله.

– يعني لا عادت بتطلع ولا بتدخل؟

– عيَّانة، راسها واجعاها.

– تكونش..

ويضحكن، فتشعر هي بالغثَيَان، وتُنهي واحدةٌ منهن هذه القفزة غير الموفقة:

– لا. لا. ألف سلامة يا حبيبتي.

وفترة صمت يرجعن بعدها إلى المعلم دربالة من جديد، والتسريحة التي كانت في جهاز ابنته، درجان في كل ناحية ومرآتها من البَنُّور الأصلي.

وتهرش واحدة منهن مِفْرَق شَعْرها من فوق الطرحة، وهي تقول:

– يعني بسلامته ضاحي معدش بييجي عندكم، هو انتوا كرشتوه؟

ضاحي في دائرةِ الشبهاتِ بالنسبةِ إليهن، طرحن اسمَه أمسِ في الجلسةِ التي كانت بينهن، ويتطرَّقن إليه الآن كبالونةٍ اختبار، وزوجةُ حبشي تفهم:

– ضاحي! يا ريت كل الناس زَيّ ضاحي، أنا وحبشي عَدِّينه زَيّ ابننا.

وتقطع عليهن الطريق نهائيًّا:

– دا حتى عزيزة عَدَّاه زَيّ عمها، مبتقولش إلَّا يا عم ضاحي.

فيسكتن، وتُسدِّد هي الضربةَ الأخيرة:

– خَلِّينا يا جماعة في المعلم دربالة.

أو تقول:

– بالإذن أنا راسي واجعاني وداخلة أرتاح.

فيشعرن بأنه لا نتيجة ويشرعن في الانصراف، يَقُلْن: إنهن ذاهباتٌ لتجهيز لُقمةً لأزواجهن وعيالهن قبل أن يرجعوا من الغيطان.

وكانت الحارة في أسوأ حالاتها من جَرَّاء أمطار الأمس، أوحال وبِرَك صغيرة لم يجفَّ منها الماء بعد، ولا حِسّ ولا حركة إلا كُلَّ حينٍ وحين. وتظلُّ هي جالسةً، فما الذي سوف تفعله بالداخل، البنت مرمية في فرشتها والبيت حالُه يغُمّ.

سحليَّةٌ فَرِحَة بشعاع شمسٍ ظهرَ وتلهو على حائطِ عبدالرسول المواجه لها، سحليةٌ أخرى قادمةٌ من الجهة المقابلة، تتأملها وتتذكَّر أيام أن كانت صبيَّة وتطاردها بعودٍ في يدها. كانت أيام..

قليلة الأدب (سعدية) التي كانت عندها قبل قليل مع زَفَّة النسوان، وتحاول دَحْلبتَها وسحبَها في الكلام، هذه المنجوسة كانت صاحبتها في هذا الوقت، ويخرجن مع الصبايا ويتمشين على حرف الترعة. أول مرة رأت فيها حبشي كانت معها، رأياه معا أمام باب النقطة، كان ممسوكًا بسرقة خروف، العساكر والخفر سَفَّفُوه التراب يومَها، ضَرْب في ضرب ورَكْل وإهانات، ولم يقُلْ: آه..

الصبايا اللائي كُنَّ معها قُلْنَ: ابن كلب حرامي ويستحق.

هي التي أُعجبت به، طول وعرض ولا يكفُّ عن المناكفة والجعير في وجه العساكر، سعدية أيضًا أُعجبت به، تأمَّلته بشهوةٍ وقالت:

- حرامي حرامي، بس سَبْع.

فهل شعرت بالغَيْرَة عندما تزوجته وتحقدُ عليها إلى الآن؟!

خذيه يا سعدية إذا شئتِ! خذيه بترابه وعفاره وسُعاله وطرشمة وجهه كلما دخل البيت أو خرج..

ملعون أبوكِ أنتِ وحبشي في ساعة واحدة..

وتنتبه من شرودها..

تعود إلى البلوَة التي هي فيها الآن، وتُشيح لنفسها بدهشةٍ وكأنها تقول:

- يا دي الخيبة! هو أنا في إيه وللا في إيه!

وتسكن، تسكن تمامًا.

طابورٌ من النمل كان يسيرُ بحذاءِ قاعدةِ الباب، لاحظته أو هكذا بدت، غير أنَّها لم تَهشَّه بكَـفِّها حتى بعد أن ضلَّ الطريق وصعد فوق جلبابها.

***

19

وطَفِقَ حبشي هائمًا في الشوارع..

هيئتهُ تبدَّلت، انطفأ، واتسعَ عليه الجلباب، كما لو أنَّه يخبُّ فيه، حتى مِشْيتُه أشبه بالمشية التي يمشيها الناس وهم يُشيِّعون موتاهم، في المُجمَل كانت حالته مُزْريَة، ولا يعرفُ أين يذهب.

بتلقائيَّة ووفق العادة، أخذته قدماه إلى الطريق الذي يجتازه كل يوم كلما ذهب إلى القهوة. فمن الحارة التي يسكن بها إلى حارة أخرى، ثم سوق ونسوة بمشنَّات على الأرض ونداءات وعربات يد، وشارع في الثاني ولاحت له هي والنقطة والوحدة الصحيَّة بالوَسَعايَة التي أمامها، وحركة كثيفة حول عربة أجرة يُحمِّلونها بالركاب، وباصُ الحكومة الذي

وصل قبل دقيقةٍ والناسُ تهبط منه.. دنياه التي لا يعرف غيرها.

وكما لو أنه لمح العواجيز الثلاثة بهلاهيلهم وأقدامهم الحافية، يمشون بحذاءِ سورِ الوحدةِ الصحيَّةِ متجهين صوب القهوة. تَشكَّك لحظةً في أنهم هم، فالمسافةُ كبيرةٌ من عنده للقهوة كما أن نظرَهُ ليس ستة على ستة، إلَّا أنَّ شيطانه أكَّد له بأنهم هم فعلًا، أبو سِنَّة وحافظ وجاد، فاجتاحته دفقةُ نكدٍ فوق النَّكدِ الذي كان فيه، وشيطانه مستمرٌّ ويؤكد له بأن "أبو سِنَّة" وأول ما يلجُ بابَ القهوة فورًا إلى النَّصْبَة، وحالًا حالًا سوف يشمِّرُ أكمامَه ويقف أمام موقدِ النارِ ويبدأ، وحافظ وجاد اللذان لو بِيعَا في السوق لن يزيدَ ثمنُ الواحدِ فيهما على عشرة قروش، منذُ هذه اللحظةِ هما المسئولان عن خدمةِ الزبائنِ وحمل المشاريب، أما النَّذْلُ ضاحي فأكيد يقعدُ مكانك الآن، ساقًا فوق ساقٍ طبعًا ويديرُ الحركة.

آه يا جوْعَى..

القهوةُ قهوتكم الآن، فإن غاب القِطُّ هاصتِ الفئران..

هنيئًا لكم يا حُثالَة، فالقطُّ لم يغِبْ فقط، مات وأخذوا فيه العزاء..

ابتعد يا حبشي.. فهذا أفضلُ حلٍّ أمامك، افعل ما تفعله الكلابُ عندما تقع في مأزق، تطوي ذيولها بين أفخاذها وتهرب.

أم يدورُ في بالك الذَّهابُ إلى القهوة، تتبخترُ داخلًا على الزبائن بلَاسَتِك وخيزرانتك والخاتم "أبو فَصّ أزرق" الذي في إصبعك، والسلام عليكم

يا حاج عمارة ويا حضرة الصول خير ويا فلان ويا عِلَّان، ولعلك تهفو إلى الشَّخْطِ والنَّتْرِ مثل زمان، وإطالة لسانك والتهويش بعصاتك على الأشكال الضالَّة التي تتمحَّكُ في القهوة، أو الزبون الذي يقِلُّ أدبَه.

إيَّاك..

سيجعلونك لعبةً يلعبون بها..

سوف يتغامزون عليك، إن لم يكُنْ في وجهكَ فمن وراء ظهرك، ومنهم مَنْ سوف يُخفي وجهه بكَفِّه أو بورقة (جورنال) ويضحك كالنسوان.

وإن كنت ناسيًا أُذكِّرُك بالكتابة التي كانوا يكتبونها لك على واجهةِ القهوة، فأبشرْ يا أبا عزيزة بكتاباتٍ جديدةٍ ومن هنا وإلى خمس أو ست سنواتٍ على الأقل.

ضاقت عليك الدنيا يا حبشي، سَمُّ الخِياطِ صار أوسَع منها..

***

احترم نفسه، أذعنَ وغاصَ في أزِقَّةٍ وحاراتٍ بعيدة..

الحاج فوزي تاجر الجِمال كان قادمًا في مواجهته، رجل طيب مثله مثل البضاعة التي يتاجر فيها، ويعرفان بعضهما، جمعتهما قَعْدةُ الحشيش أكثر من مرة، رمقه الرجلُ بنظرةٍ سريعةٍ ولم تُتَحْ له فرصةٌ للسلام والأخذ والعطاء، لحق به غلامٌ من غلمانه وأبلغه بأنهم يريدونه حالًا في البيت.

وامرأةٌ تحمل طفلًا على كتفها ظنَّ أنها تختلس النظر إليه، ولّما أراد التأكد وجدها مشغولةً وتتحسَّرُ على جلبابها الذي أتت به حالًا من فوق الحبل، واللعينُ اللابِدُ فوق كتفها لا يزال مستمرًّا ولم تفرَغ مثانتُه بعد. والشيخ أبو العلا أطيب إنسان في البلدة، مضى بجواره يترنَّح وتائهًا في ملكوتِ الله؛ غير أنه لم يفهمها على هذا النحو؛ حسب أنه يتجاهلُه مثله مثل الحاج فوزي.

امرأةٌ بتربيعةٍ قذرةٍ هي التي اكترثت به، كانت على مقربةٍ منه وعيناها على جاموسةٍ تتهادَى أمامها، ولما تغوَّطت جرت نحوها بفرحةٍ والتقطت الجِلَّة التي هبطت ووضعتها في طست بين رجليها، وأشارت له بيدها المُلطَّخة بهذا الهباب:

- شيِّلني الله يخلِّيك.

فأشاح في وجهها وروحه تكاد تخرج من أنفه:

- ياختي سيبيني في حالي.

وأناسٌ على المصاطب وأناسٌ تتحلَّق بعتبات الجوامع وأمام الدكاكين، وشيطانُه يعاودُ الوَدْودَةَ في أُذُنه بأن كل هؤلاء الذين تراهم ملاعينٌ وأعوذُ بالله منهم! فأول ما تلقفَّتك أعينُهم قادمًا من بعيدٍ بَدءُوا في الوشوشة، وما إن مررت بمحاذاتهم صمتوا، ردُّوا عليك السلامَ ولا كلمةَ بعدها، وهم الذين كانوا لا يتوقفون عن الثرثرة معك، انخرسوا الآن!

حتى الكلابُ يا حبشي تعرف حكايتك، الكلاب التي لا ترقدُ إلَّا في التراب ولا تعرف سوى النُّبَاح أصبحت تفهم!

وأظنُّك رأيت بنفسك، فما عادت تُفسحُ لك الطريقَ أو تحترمُك، ترفعُ رءُوسها إليك بقِلَّةِ ذوقٍ ووقاحةٍ ثم تعودُ إلى الرقدة التي كانت ترقدُها، وكأنَّك إوزَّةٌ أو دجاجةٌ تمضي ولست حبشي عثمان البسطويسي سبع الليل الذي تقاعد ولا تزالُ رائحتُه فيه.

اتَّخِذ موقفًا يا أخي، تصرَّف..

فأنت لست حَلُّوفًا ولا تَيْسًا حتى تُمرِّرَ الأمر، وحتى إن طأطأتَ رأسَك ومرَّرته لن يرحمك الناس، فها هي أول خروجةٍ تخرُجها عليهم، مشوارٌ لم يزِدْ على ثلث ساعة، فَرْكَةُ كعبٍ من البيتِ إلى هنا، وما الذي رأيته؟

الذين يتهامسون، والذين يتجاهلون، والذين يصمتون أو يردُّون عليك السلامَ بصعوبة، والحمدُ لله أنك سمعت كلامي ولم تقتربْ منَ القهوة، كنتَ سوف تجدُ ما لا يَسُرُّك..

أنا معك من أول دقيقة، وأعرفُ الذي دار بينك وبين المَتْعُوسَةِ زوجتك..

ألم تُشِرْ عليك هذه الحيزبون بالحل، أن (تُكَلْفِت) البنت وتزوِّجها لضاحي.

وتزينُ لك الكلام: مقطوع من شجرة، لا أُمّ ولا أب ولا أهل ولن

يقول: لا، غلبان يا أبا عزيزة ولن يرضى لنا بالفضيحة، ولا تنسَ أن لحم أكتافه من خيرك، وهُسّ هُسّ ونغلق على الموضوعِ بالضبَّة والمفتاح، ومن يفتح فمه بعدها هو المحقوق، سوف تكونُ في عصمةِ رجلٍ وقتها، ونصف العَمَى أفضل من أن نخسرَ البنت..

قالت وقالت وملأت رأسك بكلامها الماسخ، لكنّك أعجبتني عندما رميتَها بغطاءِ القُلَّةِ الذي كان في يدك، وقلت لها والنار تشيط فيك: ومن هذا الذي يقبلُها على نفسه! هل ضاحي هو الذي سوف يغسل شرفي يا بنت الأفعى!

رجل.. فعلًا رجل، هذا هو حبشي الذي أعرفه.. وكدتَ تَبرُكُ عليها وتشربُ من دمها، فليس حبشي الذي يمشي وراء كلام النسوان!

***

20

ولم يعُدْ يتحمَّل..

فهل يقتلُها الآن؟ يعودُ من فورِه إلى البيت ويكتمُ أنفاسها..

جرَّب من قبل وفشل، هل يعاود من جديد؟

كان الخبرُ طازَجًا عندما اقتحم عليها الغرفةَ أول مرة، سمعه من أُمِّها فنزل عليه بالصمت، لا انفجر فيها ولا طاح في البيت أو حتى استفهم، التفَّت ساقاه وانبطَّ في الأرض كالدَّابَّةِ المذبوحة.

خمس أو ست دقائق وهو يقلِّب كفيه ويهذي، ثم حرك سَبَّابَته بالنفي:

– عزيزة! أبدًا أبدًا، مصدَّقش.

وزوجته واقفةٌ لا تتكلم، الحسرةُ التي تعلو وجهها حسمت الأمر، قالت له وأكَّدت فوضع رأسه بين يديه وشرع في الصمت.

تخافُ من صمته، يُنذرُ بعاصفة، فدائمًا ما يلحق به هياجٌ لا حدود له، فما بالك بعد هذه المصيبة، وهي بين نارين، البنت مجرمة وتستحقُّ الحَرْق غير أنَّها في الأول والآخر ضناها.

تحاشت عينيه وهبطت جالسةً بجواره، سألها:

- وهي فين؟

- متربسة عليها.

- ماولَّعتِيش فيها ليه، هاتي المفتاح؟

وهَمَّ بالوقوف وهي وراءه، نهض بصعوبة، قدماه تحملانه بالكاد وقطرةُ بولٍ تُبلِّلُ سروالَه، شعر بها عندما خرج ووقف شاردًا في الحوش. وتظاهرت هي بالبحث عن المفتاح، لا تودُّ إعطاءه له، لا تعرف رِدَّة فعله، تريد أن تتشاورَ معه قبل أن يُقدم على فعلٍ أهوَج.

لكن كيف وهو في هذه الحالة؟

فوجهُه الذي كان ميتًا قبل دقائق شاطت فيه النار، وارتعشت شفتاه، لَمْ يَعُدْ يسيطر عليهما لا هما ولا عينيه، خلت من التركيز وتزوغ منه هنا

وهناك، ذهب الصمتُ والعاصفةُ هبَّت، ولا الجِنّ ذاته يستطيع إيقافها، والبنتُ تشعر، يصلُها كُلُّ شيءْ في الداخل، من ثقب في (ضلفة) الباب تتابع، وتحسب أنه سوف يبدأ الآن.

ضحك عليها الشيطان، فأين كان عقلُها؟

لم يَعُدْ يشغلها هذا السؤال، سألته لنفسها ألفَ مرةٍ من قبل..

أربعة أيام وهي تموت بالبطيء حتى تحجَّرت حواسُّها، إن كان يريدُ قتلَها فليدخلْ ويُنهي عليها، فمن قال إنها تتعشم في الدنيا أو لها في عينيها أيُّ طعم، وهل لم تحاول الخلاص منها؟ حاولت.. ضربت رأسَها في عمود السرير عشرين مرة ولم تمُت، داخت فقط، ولو كان في الغرفة سلاحٌ لأطلقته على نفسها.

صفعتها أمها يومها، وبَرَكتْ فوقها تعَضُّ فيها وتسألها: كيف حدث ذلك وعيناي لم تغفلا عنكِ لحظة؟ والخسيس الجبان مَنْ هو؟ ألَا يستر عليكِ؟

وهي تبكي والأم تتحسر: وتبكين الآن! بعد أن انخرب البيت.

وبذيلِ طرحتها تمسحُ دمعَها الذي سال.

دخلت عليها بعد ذلك عدة مرات، وفي كل مرة تُسمعها ما يوجعُها، توقفت بعدها عن الكلام، ترمي لها الأكل وتخرج، وهي بينها وبين نفسها

تعاتبُ أمَّها، كانت تتوقعُ كلمةً حانيةً منها هي بالذات، أن ترحمها، تبحث لها عن مخرَج، لا الشدَّة التي ليس منها نتيجة!

وجاء ضاحي على خاطرها أكثر من مرة، تريد الاستغاثةَ به، لكنها خجلت، كيف تُريه وجهها، وحتى إن شالت بُرْقُع الحياء كيف تصلُ إليه وهي محاصَرة في هذه الغرفة! تعاتبه هو الآخر، لم يسألْ عليها من نفسه، لم يُقدمْ أية مساعدة أو تدخُّل، كلما جاء البيتَ هي دقيقةٌ التي يقعدها، يتكلم الكلمة مع أمها ويخرج.

فلم يعُدْ يحفَلُ بها بعد أن حدث ما حدث..

لطالما رأتِ الشوقَ في عينيه، وهي لا تبالي وتردعه أحيانًا بنظراتها، وكانت تسألُ نفسها: كيف يتجرَّأ عليها هذا الحافي؟ ألَا يفهم مَنْ هو ومن أنا!

لم يكنْ يملأُ عينيها، واحد يخالطهم: لا مانع، أخ: لا مانع أيضًا وإن كانت صعبة، إنما حبيب: هذه هي الطُّرْفَة! طرفة تُضحك وتُبكي في الوقت ذاته، فمن ضاحي هذا الذي لا يزيد في قدره على قدر البعوضة.. ولطالما سخرت من أُمِّها عندما عرضته عليها، عوضًا عن العرسان الذين كانوا يتقدمون إليها ثم يُحجمون. وكذلك كلما جمعتها جلسةٌ مع الصبايا اللائي في سِنِّها، وأخرجت كل منهن ما عندها، فالتي تقول إن فلانًا يشاغلها، والتي تقول إن علَّانًا التقى بها خِلْسَةً، والتي والتي.. هي الأخرى كانت تقول وتُعدِّدُ أسماء الهائمين بها، ولم تنطق طبعًا باسم ضاحي، تخجل..

تخاف أن تهزأ بها الصبايا ويعايرنها به!

طيب مخلص أمين ويحبُّها، كل هذا تعرفه ولا جدوى منه، مشت وراء الملعون قلبها فساقها إلى حتفها.

واليوم يوم الحساب..

فأهلًا به، قدومُه أفضل من انتظاره بالنسبة إليها، ولم يصبر حبشي حتى تأتيه أمها بالمفتاح، دفع الباب بكتفه ودخل، كانت مُتكوِّرة في فرشتها وعيناها على أُكْرة الباب، وبرِدَّة فعلٍ سريعةٍ حمت رأسها بذراعيها. لم يشعر إلَّا ويداه تنهالان عليها فتتلقى الضربات بصمت، ويعاود من جديد وهي لا صرخة ولا بكاء ولا رجاء بأن يكُفّ، كان يضرب في جسدٍ يريد أن يموت، وأُمُّها التي جاءت على الصوت تحاول الذود عنها، يداه غشيمتان وسوف يقتل البنت، تهدده: إن لم يتوقف سوف تصرخ بأعلى ما فيها وتستغيث بالحارة، وتُسرع إلى الشبَّاك دافعةً الشيش بقوة ومحذرةً بأنها ستفعل.

توقف..

ليس بسبب امرأته، جسده خار وذراعاه توقفتا عن الهبوط والضرب فيها. لم تعودا تُسعفانه أو تستجيبان لأية أوامر، تيبَّستا وتعطلت فيهما الحركة، شعر بأنه هو الذي يموت وليس البنت، فارتمى على السرير رأسهُ مطموسٌ في المُخدَّة ويبكي.

سحبته زوجته من يده وخرجت به، لَمْ يَعُدْ قادرًا لا على الضرب ولا على الشَّتْم ولا على أي شيء، فما بالُك بالقتل وإزهاق الأرواح..!

لم يحاول بعدها، فكَّر في دياب..

***

21

وبدأت قدماه تدوسانِ الأرضَ برِتْمٍ أسرع..

فكما لو أنه ارتاح بعد أن استقرَّ على الخيار الذي وسوست به نفسُه، ولا سبيلَ أمامه الآن إلَّا تليفون الشيخ سطوحي والاتصال بدياب..

سطوحي هذا عليه سبع أو ثماني علامات استفهام على الأقل، ولا يكفُّ عن التَّمَشْيُخ والتشبُّه برجال الدين، لِحْيَة وعمامة وشارب ممسوح، غير عدة كلمات بالفصحى يتفوَّه بها أحيانًا ولا نعرف من أين أتى بها، فسجلُّهُ عند الناس ليست فيه أية بيانات سوى أنه تعلَّم في الكتاتيب مثلهم، وإن كان هو يقول ويقسم بالله: بأنه التحق بالأزهر السنتين اللتين غاب فيهما عن البلدة أول شبابه، والناس ترد عليه وتقول: كذَّاب كذَّاب، كنت

مكروشًا من البيت، كرشك أبوك وكاد أن يموتَ من الفعلة التي فعلتها، أتحب أن نقولها ونعيد ونزيد فيها، أم تضع لسانك في فمك وتسكت، كما لم يسمحوا له بتاتًا بالصعود على المنبر أو أن يؤمَّ لهم صلاة، ضلالي من وجهةِ نظرهم وكل كلامه في الدين والشرع حسب الكيف والمصلحة، وأية صلاة وراءه لا تنفع!

المهم أنه كانت تربطه بحبشي علاقة متينة، فتموين القهوة كله من عنده، وإذا مسَّه الشوق إلى الفرفشة كان كُلٌّ منهما يتأبَّط ذراع أخيه وإلى قعدة الحشيش وشد الأنفاس طوال الليل حتى ينفجر رأساهما ولا يعرفان الطاقية من المَدَاس. وقد وصلت العلاقةُ بينهما إلى أقصى مداها، عندما تطوَّع حبشي وشهد معه شهادةَ زُورٍ أمام المحكمة، قضية إرث ضاع فيها حق الغلبانة أخت سطوحي، كان اليمين الذي أقسمه حبشي يومها أمام القاضي يمينًا غَمُوسًا بجدارة، إلا أنهما حلَّلاه بحلَّة طبيخ وزَّعاها على الفقراء.

***

كان سطوحي يَتغنْدَرُ بعمامته أمام الدكان، وعندما لمح حبشي قادمًا عليه تهلَّل وجهُه، وفي اللحظة نفسها طبَّت عليه إحدى الصبايا:

– رطلين عدس وقُمْع سُكَّر؟

– عشرين قرش وتلاتة مليم.

– ممعييش غير العشرين.

فرد عليها بإصرار:

- التلاتة مليم قبل العشرين.

- يا عَمّ الشيخ!

- ولو حلفتي على المَيَّه تِجْمَد!

ولَّما توانت رفع المنشَّة في وجهها مهددًا:

- إنتي فاكراها سبيل! غوري غوري يا إبليسة يا بنت الأبالسة.

وأمسك حبشي برفقٍ وأدخله الدُّكَّان:

- قلبي عندك يا خويا.

ولم ينتظر ردًّا:

- وناوي على إيه؟

- مش قادر، إيدي مرخرخة.

- خَلَّص خَلَّص.

ويتساءل:

- أُمَّال فين دياب؟ وهو اللي زَيُّه اتوجدوا في الدنيا ليه!

وأقبل أحد المبتاعين، كان واضحًا أنه غريب عن البلدة، فطاقيتُه المبرومةُ وجلبابُه الضيقُ من عند المنْحَر ليسا من ملابسنا:

- علبة بلمونت؟

- بلمونت!

قالها سطوحي بقرف، ثم أشاح بيده:

- أنا يا حبيبي لا عندي بلمونت ولا تُمْباك ولا معسِّل، مبشتغلش في الحاجات اللي تغضب ربنا!

- تغضب ربنا!

- أي نعم! تغضب وتغضب! لو عايز أرواح، ملبِّس، رُبّ سوس، أهلًا وسهلًا.

فتأمله الرجل وانصرف، وأتمَّ حبشي مكالمته وغادر.

***

اتجه مباشرةً إلى البيت..

مدخلُ الحارةِ هو الشيءُ الصعب، لكن كيف يتلافاه؟

فعلى ناصيته دكانان، دكان يوسف الخياط وهو رجلٌ ثقيلٌ من وجهةِ نظر حبشي، تشاجرا عدة مرات بسبب تأخُّره في دفعِ أجرِ التفصيل، بل وكاد أن يبطح حبشي إحدي هذه المرات بسبب خمسين قرشًا أكلها عليه، ولا تزال لديه قطعة قماش تخصُّه، فصَّلها وركنها ويمين بالله بينه وبين نفسه، ألَّا يسلمها له إلا عندما يكون جاهزًا ويدفع حَقَّ الخياطة أولًا.

الدكانُ الثاني دكانُ الزناتي مُبيِّض النُّحاس، والحركةُ عنده لا تهدأ..

فالدكان متر في متر، وهو نفسه يعمل في الشارع، يقف بقدميه في الحَلَّة أو الطِّسْت ويظل يهتزُّ ويدور ويدعك كراقصاتِ الفَرْزِ الأخيرِ البديناتِ الفاشلات، والنسوةُ لا يستطعن السيطرةَ على أنفسهن، يُخفين وجوههن في الطُّرَح ويضحكن، المؤدبة منهن تكتفي بالابتسام.

يتجمهرن حوله من أول الصباح، التي تحمل سطرًا من الأواني فوق رأسها، أو ركنتها بجوار الدكان وقعدت جنبها، أو اختلت بأختها وهات يا نميمة في عباد الله. كان الدكانُ مصدرَ ضجَّةٍ في الحارة، رغي وخبط وزحام فضلًا عن صياح وزعيق الزناتي، فهو رجل (دوغري) ولا يسمح بتاتًا بأي غلط، والتي تتجاوز كان (يَرْدَح) لها.

مضى حبشي بارتباكٍ أمامَ نسوة الزناتي، وبدأن هن:

- إزيك يا عم حبشي..؟

- عامل إيه يا خويا..؟

- أُمّ الخير آهي قاعدة هناك ومستنِّياك..

والتي تقول ولكن بصوت لا يصل إليه:

- مالك يا خويا هكَّعت كده زَيّ حمير السباخ؟

لم يرد أو التفت إليهن، نسوة فارغات ولو في مقدورهن لزفُّوه في البلدة، شغل نفسه بإلقاء السلام على يوسف الخيَّاط.

لم يفعلها من شهر، فلا كلام ولا سلام بينهما منذ أن تعاركا، ويوسف نفس الشيء فكلما مر أمامه حبشي لم يكن يأبه به، يُداري وجهه، يدَّعي الانشغال بالإبرة والخيط اللذين في يده؛ غير أنه هذه المرة تطلع لحبشي بعينٍ مختلفة، وربَّما هذا الذي شجَّع حبشي على أن يبدأَ بالسلام. رفع كُلٌّ منهما يده مُحيِّيًا الآخر، والتقت عيناهما دون كلام، لكن الغرض تم، فعينا يوسف كانتا تشعران به وتُعزِّيانه، وأحسَّ هو بالراحة، كان في حاجةٍ لمن يتلطَّفُ به..

وبعد أن خطا بضع خطوات، نادى عليه يوسف:

- يا عَمّ حبشي. يا عم حبشي.

فتوقف واستدار إليه، ويوسفُ يقبضُ على لفَّةٍ بيده:

- الجلَّابيَة خلصت خلاص.

ومد يده له بها، فتحسَّس حبشي سيَّالته:

- بس..

- بعدين بعدين، وهي الدنيا طارت.

وحبشي بصوت مُمْتَنّ:

- ربِّنا يبارك لك يا أبو حسين.

***

22

على عتبة الباب كانت تجلس امرأتُه..

وهي نفسها الجلسة منذ أن خرج، البيت هناك في آخر الحارة وعيناها الكليلتان لم تلمحاه إلا بعد أن ترك دكان يوسف الخياط بعدة بيوت، ثم أتتها رائحتُه، رائحة المعسل والدخان، تلازمه وأحيانًا تسبقه بعدة خطوات، فكثيرًا ما ملأت أنفَها من قبل أن يظهر وتراه، وساعات يكون نظيفًا وخارجًا لتَوِّه من الحمَّام، ومعها من أول الصباح لا شرب شيشة ولا حتى سيجارة، ومع ذلك تشعر بوجودها، كما لو أن رباطًا يربط بينها وبينه ومن يلوح منهما أولًا حتمًا وراءه الثاني.

خطواته تُنذرُ بشَرّ، هكذا فسَّرتها، ولفَّة تحت إبطه، حسبتها سلاحًا فحفزتها الغريزة، ضناها ولن تسمح له، فإن كان عازمًا على إيذاءِ البنتِ سوف تتعاملُ معه بشراسة، ولو رمته بصفيحة جاز وولعت فيه. وكإجراء احترازي أسرعت إلى الداخل لتطمئنَّ عليها أولًا، أغلقت عليها بالمفتاح، أدارته ثلاث دورات حتى استقر اللسان بأكمله في مجرى الباب، ثم شخطت فيها كي تضعَ خلفَه كل الأشياء الثقيلة التي عندها، ليصُدَّ حبشي إذا حاول من ورائها.

ووقفت تنتظر، وجهُها مُتجهِّم والوقفةُ وقفة تَحدٍّ:

- إيه دا اللي تحت باطَك؟

- مفيش.

وشدَّت منه اللفَّة وتفحَّصتها.

لا يعرفُ لماذا استسلم لها! هل للغضب الذي في عينيها ولا يريد عراكًا وعُلَوَّ صوتٍ في الشارع، أم في هذه اللحظة كان في مزاجٍ طيبٍ من دفءِ المقابلةِ التي التقاه بها يوسفُ الخيَّاط، وأفكار لم تَدُرْ في باله قَطُّ تأخذُه إلى مداخل أخرى..

ثم سألته:

- إوعَى تكون كلِّمت دياب؟

فسكت.

- تبقَى كَلِّمته.

ورمتِ الطرحةَ فوق رأسها قاصدةً القهوة، وهو يسأل:

- على فين؟

- رايحه في داهية.

***

أسرع إليها ضاحي عندما رآها تحومُ حولَ القهوة..

- إيه اللي جرى تاني يا خالة؟

ورآها على هيئةٍ مختلفة، وجهُها ناشف صعب وشديدة في كلامها:

- فتَّح ودانك واسمعني! إنت اللي تقدر تحلَّها، راجل وللا مش راجل؟

وكفُّ يدِها ترتعشُ وهي تُشيحُ بها في وجهه:

- أنا اللي ربِّيتك وكبَّرتك وعَدَّاك زَيّ ابني، تحرَم عليَّا ولا أشوفك ولا تشوفني إذا لبست الأسود على عزيزة وانت على ضهر الدنيا.

وهو بحماس:

– وأنا ابنك ومن إيدك دي لإيدك دي، بس رَسِّيني.

– الوسخ عملها وكلم دياب.

– وناويَه على إيه؟

– ناويه أخيِّب رجاه هو ودياب في ساعة واحدة.

– أنا مستعد أكتب عليها حالًا.

– معدش ينفع، مستكترها على كرامته قُدَّام الناس.

وطَفِقَا يتكلمان وطبقةُ الصوتِ تخفتُ لأدنى درجة.

***

أما حبشي فدلف إلى غرفته وألقى بنفسه فوق السرير، لم يخلع جلبابَه ولا مَدَاسَه أو على الأقل عمامته، تمدَّد بالجميع وخيال ابنتُه يطوفُ به..

يطوفُ وهي في اللفَّةِ والقِمَاط، رموشها من طولها تلفت النظر، وأمُّها تداريها بطرحةٍ خفيفةٍ وتُشتِّت العيون التي ترى وتحسد، والبنتُ كلها ومن أولها لآخرها بحجمِ إوزَّةٍ من إوَزِّ البيت.

فمن ينسى هذا اليوم..

خمس سنين حتى جاءت، أتت بعد عناء، مشايخُ وأطباء ووصفاتٌ

بلدية وأدوية مكتوبة في روشتات، ومن فرحته يومها أطلق عيارين في الهواء وصلَّى ركعتين لله، لا يتذكَّرُ أنه صلى من قبل، ربما خمس أو ست مرات على الأكثر، وبعدها لم تَفُتْهُ صلاة.

جاءت وجاء الخيرُ معها، انطوت صفحةٌ وانفتحت صفحة جديدة، ابتعد عن الإجرام وفتح قهوته في أحسن مَطْرَح، وجهًا لوجه مع موقف الأجرة وأمتار عن النقطة والوحدة الصحية وباقي الأماكن المُهمَّة في البلدة، كلَّفته الكثير، كل الذي كان معه، وهذا الكل حرامٌ في حرام طبعًا، فما الذي يفعله؟! كان أمام خيارين، إما أن يستمر في الغلط أو يبدأ هذه البداية المُلْتبسَة، مال قلبه للالتباس والله غفور رحيم مثلما بَرَّرها لنفسه! فمسألةُ التخلص من حصيلةِ الإجرامِ هذه لم يَستسِغْها أو كان يقدر عليها.

***

لا تمضي الأمور أبدًا وَفْقَ الرغبة..

فرغم أن صلاحَ حالهِ جاء مع ولادةِ عزيزة، إلا أنها بيت الداء..

وضعت أنفه في التراب ومع ذلك صعبانة عليه، قامتُها لم تكن تتعدَّى الخمسة أشبار أول يوم راحت فيه إلى المدرسة، ألبستها أمُّها المريلةَ وحملها هو فوق صدره، وطول الطريق يعلمها كيف تنطق اسمها أمام المُدرِّسين،

يقول وهي ترددُ وراءه: أزيزة بنت حبشي.. أزيزة بنت حبشي..

ويطلب منها أن تعيدَ وتعيد، لا يقصدُ من التكرار أن تحفظَ اسمها، حفظته وانتهى الأمر، كان متمتعًا باسمه على لسانها، لم يسمعه من قبل ولا من بعد خفيفًا ولُثْغته حلوة على هذا النحو، ينطقونه في البلدة بأصوات كأصوات البهائم، ثقيل على ألسنتهم، كما لو أنهم يَتقيَّئونه..

يناوشه هذا المشهد بعد أن فعلت ما فعلت، فكلما أسرف في حنقه عليها يأتيه، وإذا حاول التخلُّص منه يعاند ويبقى.. مشهُد بسيط، لا حولَ له ولا قوة، بنت بضفائر ومريلة ورنَّة صوتها كالثَّغْثَغَة، لكنه أقوى منه، أقوى بمراحل، قوته في قدرته على قتل لحظة الشر عندما تشتد عليه..

من أين يأتي؟ وكيف يُصرُّ على البقاء رغم عنه..

أيأتي من تلقاء نفسه؟ ألهُ كيانٌ وقدرةٌ على الحضور وقتما شاء..

مستحيل! جزء منه هو الذي يستدعيه ويضعه أمامه..

صراعٌ يجري بداخله وهو لا يحسُّ، مباراةٌ بين خلايا تتشاجر مع بعضها البعض..

خلايا شرسة تدفعه إلى أذيَّتها، وخلايا تقاوم وتريد لها الحياة..

***

هل يقومُ ويطلُّ عليها؟

يفتحُ عليها الباب بأيَّة حُجَّة، أو حتى يراها دون أن تراه، ينظر من أيِّ ثقبٍ في بابٍ أو شُبَّاك..

فكرةٌ طرأت له فتلقاها بارتياح، لم يعْبَس في وجهها هذه المرة مثلما كان يعبسُ من قبل، ومع ذلك لم ينفذ، لا قام ولا تحرك، فهكذا هو؛ خصوصًا عندما شاخ، يفكر في الخير ولا يفعله ويصمم على الشر ولا يستطيع..

يَصعُب عليه فراقُها..

وما الذي بيده؟ هي التي أذت نفسها..

ويسأل نفسه: هل أخطأ عندما أبلغ دياب؟ هل امرأتُه أعقلُ منه؟ وضاحي كان سيحفظُ الجميلَ ويسترُها، إكرامًا لأُمِّها على الأقل..

ثم بدت له تساؤلاتُه تساؤلاتٍ خائبةً ولا معنى لها، عُقْم وقِلَّة حيلة، فما الفائدة الآن إن كانت الإجابة: بنعم أو لا، فقد عرف دياب وانتهى الأمر، ولم يبقَ سوى الموت والخراب..

هل يستطيع إيقافه؟ يقف له ويُحذِّره إن مسَّ ابنتَه، أخوه الكبير وله كلمةٌ عليه..

كلمة!!

كلمة مَنْ يا أيُّها الخروفُ الراقدُ فوق السرير..

فدياب حيوان، ويقتل أحيانًا بلا سبب، القتل فعاليَّة من فعاليَّات حياته، فما بالُك والسببُ موجود! فلن يعتبر ما حدث شيئا يخصُّك وحدَك، يخصه هو الآخر، سبع كفر الشيخ الهارب من حكمين بالمؤبَّد وابنة أخيه فرَّطت في عِرْضِها، لن يتحملها، سوف يقول: العائلة وشرف العائلة وكذا وكذا..

العائلة!

أين هي العائلةُ يا بْنَ الحرام؟ في أيِّ سجلٍّ مكتوب اسمُها؟ سجلات الأشرار والمغضوب عليهم طبعًا، ألسنا جميعًا حشراتٍ مؤذية؟!

جَدُّنا ذاته كان مجرمًا معدوم الضمير، لم يتقاعد عن السلب والنهب إلى أن مات، أبونا هو الآخر كان ذئبًا على هيئة إنسان وسيرتُه مع الحريمِ مُقزِّزةٌ عَفِنة..

عن نفسي لم أرث منه هذه الخَصْلَة، أحاذر دائمًا من هذه السِّكَّة، سرقت: نعم، بلطجت: نعم، حشيش: أستاذ، شهدت بالباطل أو أسأت الأدب وحلفاناتي كلها كذب: نعم. نعم. نعم. ومن هنا حتى آخر السطر، لكن إلا الشرف والعِرْض..

أهو انتقامٌ إلَهيٌّ من هذا الجَدِّ الفلاتي؟ لكن ما ذنبُ عزيزة! وإن لم تَمُت وتنطوي صفحتها ما ذنبي أنا لأحمل عارها..؟!

يا ربّ لم تعاقبني لا على السرقة ولا البلطجة والزُّور وأحسَبُ أنك سامحتني، وتعاقبني الآن على شيءٍ لم أفعله أو حتى فكرت فيه، أهذا عدلُك! أهذه حكمتُك!

فالفضيحة لن تمسَّ عزيزةَ وحدها، ستطولُني أنا قبلها وتجعلُ رقبتي كالسمسمة..

ونزلت على قلبه كراهيةٌ شديدةٌ لدياب، هبطت عليه دفعةً واحدة، صار خَصْمه وليس عزيزة ولو يستطيع لفتك به، والسبب؟ لا يعرف، أو على الأقل لم يكن يعرف في هذه اللحظة..

وترك لخياله العنان، ذهب به هنا وهناك دون أن يتبلور في رأسه حلٌّ لهذا المأزق أو يعرف ما هي الخطوةُ التالية..

يريد لابنته الحياة والموت في ذات الوقت، ويريد أن يرفعَ رأسَه بين الناس، لكن كيف؟ ويعاند ولا يرغب في التشاور مع زوجته، يعرفُ ما عندها، يريد أن تختمرَ فكرة الصَّفْح في رأسه أولًا، أن تأتيَ منه هو، فالفعلة ليست هَيِّنة والصفح ليس أمرًا بسيطًا، المشكلة في الوقت، فدياب يوم والثاني على الأكثر ويجده داخلًا عليه، لعنةُ الله عليك يا دياب! أنت من يستحقُّ الفضيحةَ وليس أنا..

ويتمنى لو دهسته سيارةٌ أو أكله قطارٌ وهو قادم، أو أن يموتَ هو

نفسه ويرتاح، ميتةً بلا عذاب ولا احتضار، يُغمضُ عينيه فلا يجدُ نفسه في هذه الدنيا..

وفرغ رأسُه، فرغ على نحوٍ يثيرُ الأسى، فدفنه في المُخدَّة ما بين اليأس والرجاء، لم يشعر بامرأته عندما رجعت، ولا بحديثها مع ابنتها بأن تجمعَ هدومَها وأشياءَها الرفيعةَ وتستعد..

***

23

عندما طَبَّ دياب أحدث هِزَّةً في البلدة..

لم يَرهُ الناس من سنين، حكاياتُه هي التي تصل، من قال في السجن وحدَّد اسمه بالضبط: سجن أبو زعبل، ومن قال أعدموه أو مات في عَرْكَة مع أولاد الليل، والذي زحزح طاقيته إلى الخلف وقال: كذب كذب كله كذب، هَبَش هَبْشَة محترمة وتقاعد بعدها، اشترى عشرة أفدنة في زمام مركز دسوق ويزرع ويقلع فيهم الآن.

وعندما يلحظ هذا الحَكَّاء عدم الارتياح في أعين من يسمعون، الهلافيت الفاشلين بالذات أمثال ابن عرنوس وابن يونس الطبَّال، مِمَّن تروق لهم جسارةُ دياب وإجرامه وتُحبطهم مسألة الاعتزال والتقاعُد هذه، عندما

يلاحظ هذا كان يُبشِّرهم بلاعبٍ جديد:

– صَدِّقوني، أنا اللي عندي المفيد، دياب خلاص استكفَى، صلاة النبي عليه دلوقتي ابنه هلال، هو اللي بقَى صاحب الصِّيت ومدوَّخ الحكومة معاه!

زادت هذه الحكاياتُ بعد الذي حدث لعزيزة، تذكَّروه واللبيب منهم يتوقَّعُ قدومه، يتوقع فقط، فالشيخ سطوحي لم يسرِّبْ أسرار حبشي بتاتًا أو أشعرَ أحدًا بأنه يعرف، ليس لأنهما صديقان والمفروض أن يخاف كل منهما على الآخر، فهذه مسألة ثانوية بالنسبة إلى سطوحي وتخضع للتقلُّبات، طبعه هو الذي أجبره على حفظ لسانه، فالشرُّ عنده أبوه وأمه الكتمان كي لا تحدثَ أية شوشرة أو تدخُّلات تعطِّلُ وقوعَه.

***

وجاء لهم دياب..

لمحته إحدى النسوة يمرقُ داخلًا الحارة، ويتبصَّصُ حوله كما لو أنه نسي موقع البيت، وأخيرًا دخل دون أن يشعرَ به أحد سواها، وكان هذا ما بين المغرب والعشاء، وهي أصلًا ليست من سكان الحارة، من حارة أخرى، وتصادف وجودها في هذا الوقت ليس إلَّا.

وتشرح: كنت قد استلفت عشرة أرغفة من صاحبةٍ لي هنا، وتشير إلى

بيتها، وعندما خبزتُ هذا الصباحَ لَفَفْتُ عشرة مثلهم في جلباب عَيِّل من عيالي وجئت أردُّهم، فلمحت ابن المركوب.

فلم تتحملِ الاحتفاظَ بهذا الخبر حتى ترجعَ إلى البيت وتبدأ بزوجها أولًا، حَكتْهُ لكَلِّ واحدةٍ التقت بها، وشاعَ في البلدةِ من قبل أن يلتقطَ دياب أنفاسَه ويشرب كوبًا من الشاي عند أخيه.

ويسألنها:

– وشكله إيه؟

– وهو أنا تايهه عنه، هو وعزرائيل فُولَة وانقسمت نُصِّين.

– ومعاه سلاح؟

فتردُّ بتلقائيَّة وعمَّا رأته بالفعل:

– العلم عند الله.

ثم تشعر بأن إجابتها ماسخة وليس فيها فُلْفُلٌ ولا بهارات، فتأتي بكلام من رأسها:

– استنُّوا استنُّوا، شفت شفت، كان ماسك في إيده مقروطة، وعنيه يا ستَّار يا ربّ بِتطُقّ شَرَار.

فتتمتم إحدى الواقفات:

- يا عيني عليكي يا عزيزة.

***

وأغلق الزناتي مُبيِّض النُّحاس دكانه وجلس ينتظر، أعشى وإذا غامر مرة ورجع وحده يتعرض للعَضِّ والنُّبَاح، مسكين عيناه لا تسعفانه ويدوس على ذيول الكلاب الراقدة في الطريق دون أن يشعر، فرجاه أولادُه بأن يظل قاعدًا أمام الدكان حتى يجيء واحدٌ منهم أو حتى أُمُّهم ويأخذونه، ضجروا من المشاكل، فكلما عضَّه كلبٌ وهو راجع يخرجون بالعِصِيّ للعراك مع أصحابه، وتضيع الليلةُ في جمهرةٍ وشتائمَ وإصاباتٍ، ثم حلفانات وصُلح بعدها.

أتته زوجتُه هذه الليلةَ تمدُّ في مِشْيتها، ووجهُها كله انفعالات:

- مَدرِتشْ؟

فردَّ عليها بامتعاض:

- خير؟ نعم!

- مش دياب وصل!

وتسبقه قبل أن يجيب:

- آه والنبي جه، والبلد قايده نار!

فأشاح في وجهها:

– جه وللا مجاش إنتي مالِك! ربِّنا يُستر علينا وخَلِّينا في حالنا.

فانكتمت، تعرفُ طبعَه، من البيت للدكان ولا علاقة له بما فعل فلان أو سوَّى عِلَّان، وهذا ما يزعجُها، رجلٌ عكر، كلامُه واقف، كل الناس تُفَضْفِض لزوجاتها وتتكلم براحتها إلَّا هو، أحبطها رَدُّه، سحبته من سُكات ومشت.

وكان يوسف الخيَّاط قد ملأ الكلوب بالجاز وشرع في إشعاله، ولمَّا عرف عدلَ وأغلقَ الدكان فلا داعي للخياطة والسهر على بعد خطوات من بَلْوَة سوف تقع، انسدَّت نِفْسُه ورجع إلى البيت. كان زعلانًا على عزيزة، كلما مرت أمام الدكان كانت تسلم عليه، حتى في عِزِّ خصامه مع أبيها لم تقطعْ هذه العادة، هي أحسنُ من في البيت فأمُّها لا تعرف إن كانت سهتانة أم حويطة وأبوها جِلْف. يعرفُها من أيام أن كانت (عَيِّلة) تلعب في التراب، وكبُرت على عينيه حتى صارت صبيَّةً وبِنْت بنُوت، طفقت صورتها تخايله طوال الطريق، ونبرة صوتها وهي تقول له:

– متزعلش من أبويا يا عَمّ يوسف، دا لا شرَّاني ولا عمره قصد كلمة واحدة من الكلام اللي بيقوله، غلبان، والنبي غلبان، أنا اللي عارفاه.

ويزداد خيالُها إلحاحًا وهو منساقٌ ويتملَّكُه الغضب، ولولا أشياءُ كثيرةٌ وتحسُّباتٌ لذهب للنقطة وأبلغَ الضابط عن حبشي ودياب..

فهل كانت عزيزة غاليةً عليه ولم يكن يشعر، أم الموتُ والدمُ هما السبب وهذه النهاية التي لا يرضاها لها أو لسواها..؟

لكن ما دَخْلُه؟

كلمة قالتها له نفسه لتخفف الوطأة عليه، أبوها وهو حر فيها، يخنقها، يذبحها، حقه! حقه هذه مُسلَّمة من المُسلَّمات التي يؤمن بها هو وكل الناس، فرغم طيبةِ قلبهِ وعقلهِ الناضج بعض الشيء فإنَّ فهمه لم يتجاوز هذه النقطة!

وشعر بالمرارة، فلم يحسب حبشي كافرًا وقلبه ميتًا إلى هذه الدرجة، فعندما مرَّ عليه أول أمس أشفق عليه، والآنَ في هذه اللحظةِ يحملُ له مشاعرَ سلبيَّة.

ورجع إلى بيته..

امرأتُه كانت خالية البال، لا وصلها الخبرُ ولا تعرف، سألته عما به: هل غلط وأتلف إحدى الجلابيب بضربة مقص خاطئة؟

- لا. مفيش.

- طَبْ تتعشَّى؟

- مليش نِفْس، داخل أنام.

***

رجالُ الحارة أيضًا عادوا إلى بيوتهم بعد صلاةِ العشاءِ وتَرْبسُوا وراءهم، حتى معتادو السهر لم يفكروا في الخروج وحرَّجوا على أولادهم، أكثرهم تعشَّى ونام في ساعتها، والذي قرأ وِرْدًا أو استمع إلى قرآن السهرة ثم أغمض عينيه.

وانكتمت أنفاسُ الحارة..

فلا حِسّ ولا نَفَس، حتى الحاجُّ سنوسي الذي يترك فانوسًا أمام بيته كل ليلة، أطفأه أو ربما لم يُشعلْهُ من الأســاس، أُخليت الساحةُ تمامًا وأصبحتِ الحارة كاللَّوْزة المُقشَّرة في كَفِّ دياب. رجل بجلبابٍ ولاسةٍ بَشْنَقَها حول عنقه، هو الذي مشى في الحارة بعد العشاء بساعة، غلبه الكيفُ فخرج وعاد بعلبة دُخَّان، وبالغريزةِ التفت التفاتةً سريعة ناحية بيت حبشي، فبدا له مغلقًا بابًا وشبابيك ولا شعاع نور واحد يطلُّ منه، وكما لو أنه خُيِّل إليه أن ثمَّةَ جَلبَةً وصياحًا بالداخل، وفسرها هو على أن عملية القتل تتم في هذه اللحظة، فانتابه الخوفُ وسريعًا إلى بيته يقول لزوجته، وهي تسمعُ وترصُّ في الذاكرة لتحكيَ لجاراتها أول ما يطلع الصباح.

أما النسوةُ المُتحمِّساتُ فقد سهرن أغلب الليل، تسلَّمن الشبابيك، التصقت وجوههن بها، وإذا أقبل عليهن أي عَيِّل من عيالهن الصغار كُنَّ يدفعنه خفيفًا بأقدامهن ليبتعد ولا يشغلهن. واللائي بيوتهن بعيدة هناك في أول الحارة، كُنَّ يحسدن صاحباتِ البيوتِ المواجهةِ لبيت حبشي، مواقعُهُن ممتازة، فدبَّةُ النملةِ كُنَّ يسمعنها ولو مشت قِطةٌ أو تَمطَّى كلبٌ كُنَّ يعرفن،

وعلاوة على المواقع اللائي كُنَّ فيها هن أساسًا مُحنَّكات في هذه المسائل ولا يغلبهن أحد.

ظَلَلْنَ في أماكهن حتى ساعةٍ متأخرة، ومنهن من نعست وهي واقفة مثلما تفعلُ الخيل، والتي خيالها واسعٌ كانت تتوقَّعُ سماعَ صرخةٍ أو دَوِيّ خرطوشٍ أو ربَّما تحسب أن دياب سوف يفتح باب البيت فجأةً وهو قابضٌ على شَعْرِ عزيزة، ويذبحُها بسِكِّينٍ أمامهن مثلما يفعلن هن مع فراخهن وطيورهن.

***

24

يومٌ بليلةٍ وحبشي بيته مغلقٌ..

وُورِب البابُ أخيرًا وعادت أُمُّ الخير لجلستها المعتادة، وجاءتها النسوة زُرَافَاتٍ زُرَافَات:

- العَوَاف.

- يعافيكم ويا ألف مرحب، ارتاحوا ارتاحوا.

لقاؤها الوَدُود ومعنوياتُها المرتفعةُ أدخلتهن في غموضٍ جديد:

- يعني لا حِسّ ولا خبر!

- مَعْلِش.. عمِّك حبشي بعافية شويَّة.

– سلامته سلامته، بعيد الشر.

قُلْنَها سريعًا ومن باب جبر الخاطر لا غير، فحبشي لا يشغلهن الآن أو جئن من أجله، وتَطلَّعن لبعضهن البعض إلى أن قالت إحداهن:

– سمعنا إن عندكوا ضيوف.

والثانية وراءها محددة النقاط على الحروف:

– دياب.

فبدا الاستغراب على وجه أُمِّ الخير:

– دياب مين؟ دياب أخو حبشي!

وتتنقل بعينيها بينهن:

– دياب! ويا ترى هو لِسَّه عايش وللا أراضيه فين، لا يا حبيبتي لا جه ولا شُفناه.

باغتتهن الإجابةُ فدخلن لها مباشرةً، قلن لها عن المرأة التي شاهدته والمعلومات التي عندهن:

– واحدة إيه وبتاع إيه! وهي هتعرف أكتر مِنِّي.

وهُنَّ يُصرِرْنَ:

– وداد بنت الطحاوي.

– وداد مين دي أم حَنَك أعْوَج!

وتُبدِي غضبها:

– وأنا هَدَارِي ليه، أعدم عافيتي لو كُنَّا شفناه، دا من ساعة ما كانت عزيزة لِسَّه في المدرسة وهو مَطبِّش بيتنا.

سَدَّتْ عليهن المنافذَ وهُنَّ لا يستسلمن، يلتقطن اسم عزيزة من بين شفتيها ويحاولن من جديد، تقول إحداهنَّ بلِينٍ:

– وازيَّها؟ آخر مرة مكنش لها كيف.

– حلوة صلاة النبي، ومن الصبح بدري سافرت البدرشين.

– البدرشين؟!

– آه البدرشين، عند جماعة قرايبنا من طرف الحاجَّة سماح.

– سماح مين؟

– الحاجة سماح الله يرحمها اللي كانت عَمَّة أبويا واتجوزت واتغرَّبت هناك.

– سماح! ولا عمرنا سمعنا عنها.

– أيوه يا نَضَرِي سماح! ودي حكاية قديمة متوعيش عليها.

ولما بدَا على وجه المرأةِ عدمُ الاقتناع، تهيَّأت أُمُّ الخير للعِرَاك:

– مالِك ياحبيبتي! رافعة حواجبك ومستعجبة كده ليه؟ أقوم أجيب لك المصحف وأحلف لك عليه.

فيَشْعُرن بأنه إلى هنا وكفَى، وينصرفن مُحْبطَات.

***

وأتت الأيامُ بكلامٍ آخر..

أتت بعد وقتٍ وبالتدريج وليس دفعةً واحدة، ففي دفنة حبشي بَعْبعَت أُمُّ الخير بكلام وهي تبكي عليه، والنسوة – الناشطات منهن بالذات – يلاحظن و(يلضمن) ما تقولُ في كلام قالته فيما بعد أثناء نوبات ضعفها وحسرتها على جلستها وحدها في هذا البيت الطويل العريض.

كُنَّ يسمعن ولا يعلقن، يحفظنه في صدورهن ويغلقن عليه بالمفاتيح، فلم يحاولن انتهاز الفرصة وجرجرتها في الكلام، فالساعةُ ساعةُ عزاءٍ وتطييب خاطر والموقفُ فيها لا يحتمل، كما أنها أكفأ منهن بمراحل في هذه المباراة لو انتبهت، وأكيد سوف تنتبه، تَرَكْنَها تتكلم عندما تريد، وإن كان على الوقت لا مشكلة فيه فهن صَبُورات، ظللن على هذا حتى عرفن، ليس كل الحقيقة بعضها فقط فثمَّة أسرار لن تنطق بها ولو ذبحنها.

فأُم الخيرِ وحسبما فهمن، كانت تلاوعهن فعلًا عندما جئن إليها، ودياب جاء كما قالت المرأة التي رأته غيرَ أنه لم يكمل الليلة، اختلى بأخيه في غرفته

ولم يسمحا لها بالدخول، والصوت يعلو ويخفت وكأنما يتدافعان أو دخلا في مشاحنةٍ مكتومة، ثم فوجئت بالباب ينفتحُ بضربةِ قدمٍ شديدة وديابٍ كالثور الهائج، أزاحها من طريقة متجهًا صوبَ غرفةِ عزيزةً، وحبشي يلهثُ وراءه ووجهُه أصفر كالكُرْكُم، لم يكملْ استدار عائدًا وانحنى أسفل السرير ساحبًا فَرْدَ الخرطوش الذي يخبئه، وهي مُشوَّشة ولا تعرف قصده، لم تفهم إلَّا بعد أن دفعها عنه:

- بَعّدِي بَعّدي، ابن الحرام عايز يخنق البنت!

حاولت لفت نظره إلى أنها ليست هنا، وألَّا يكثرت بدياب ويدعَه يفعل ما يشاء؛ غير أن تسارُع الأحداث كان أسبق منها، رأياه خارجًا من غرفة عزيزة وعيناه تومضان بالشَّرَر، واندفعَ كالمجنون باحثًا عنها فيما تبقَّى من البيت، ثم صرخ فيهما:

- هرَّبتوها يا أوساخ!

ووكز حبشي وكزةً طرحته أرضًا، وهو يصيحُ فيه:

- وشايلِّي فرد خرطوش! آه يا تيس! يللا يللا قُوم ولِفّ راسك بطرحة زَيّ النسوان، ويمين بالله لأخلِّي العيال تزِفَّك في البلد.

ثم بصق عليه، ودفع باب البيت خارجًا.

وحبشي يغشاهُ الذهولُ أو كأنه في حُلْمٍ يفوقُ الاحتمال، حواسُّه لا تحتملُ أو حتى تدركُ ما يقع ومصدوم من الإهانة والبصقة التي نالت

وجهه، دوَّامةٌ ابتلعته وتدور به أو ربما بداياتُ غيبوبةٍ شَلَّت عقله أو تكاد، فلا خطوة يخطوها للأمام أو حتى للخلف، أو كلمة أو انفعال واضح، لا شيء سوى نظراتٍ زائغةٍ وإشاراتٍ بالأصابع تستفهم. وشعرت أُمُّ الخيرِ بأنه سيموتُ منها، فمَدَّت يدها لتأخذَ به بعد أن استند بكفِّه إلى الأرض محاولًا النهوض، إلَّا أنَّه أشاح لها بأن تبتعدَ عنه ووجهُه تكسوه خيبةٌ ثقيلة.

وتعرقل لسانه، وتعطلت معه حركة وجهه على نحوٍ يفيد بأنه أُصيب إصابة شديدة وصعب أن ينجو، بدَا ذلك من ثبات الجانب الأيسر من شفتيه وجَفْن عينهِ الشمال الذي تدلَّى، والصوتِ الواهنِ المتلعثمِ وهو يسألُها عمَّا إذا كانت هي التي هرَّبت البنتَ من ورائه، فسكتت.

وهو لا يزالُ يئنُّ:

– كده تعمليها! مِنِّك لله.. ومن غير ما تشاوريني.. وهو أنا مش راجل.

شهر بعدها ورحلَ عن الدنيا.

***

25

وانهدَّتِ القهوة..

غير أنها بقيت في ذاكرة الناس، عمرٌ وهم يرتادونها، تفاصيلُها حيَّةٌ في صدورهم رغم أن المالك الجديد أزالها من فوق وجه الأرض وشيَّدَ مكانها قهوةً جديدةً أسماها (قهوة الأكْتَع). ومع أنه بناها بالطوب الأحمر والدَّبْش ورصف مدخلها ببلاط مُلوَّن، ومقاعد وطاولات جديدة غير الراديو الفيليبس الذي لا فيه خَرْوشَة ولا لَجْلجَة أو تهرب منه المحطات كالراديو القديم، إلَّا أنَّ القدَم عليها كانت خفيفة، ومن الناس من كان يدفع كوب الشاي من أمامه باستياء:

– صايت. مَالُوش طعم. وساعة الحساب يدفَّعونا الطاق اتنين.

ويلتفت إلى الرجل ذي العين الحولاء الجالس إلى الطاولة المجاورة:

– منين داهية الراجل الأكتع ده اللي فتح القهوة يا ريِّس شبانة؟

– بيقولوا من كفر أبو عيسى.

– أعوذ بالله على دي ناس!

– فاكر الشاي بتاع الواد ضاحي؟

– آه والله، الواد إيده كانت تتلفّ في حرير وبيرضَى بالقليل.

ويغوصان في الكلام عن حبشي والقهوة القديمة، إلى أن يقول أحدهما:

– وفاكر لما حبشي كان...

والآخر عيناه تومضان ببريقٍ ممتع:

– إلَّا فاكر! فاكر وفاكر، وللا ساعة لمَّا...

ثم يترحَّمان عليه، وإن كان واحدٌ منهما يعلق وعلى وجهه ظِلُّ ابتسامة:

– هو صحيح ابن كلب، بس كان غلبان وعايز يعيش.

تحركت قلوبهم نحوه ولم يعُدْ يمسُّه أحدٌ بسوء، تبوَّأ مرتبةً عاليةً في نفوسهم بعد أن مات، وكأنَّ إحساسًا بالذنب طغى عليهم لنفورهم منه فيما قبل بلا داعي. ضاحي هو الذي كان وضعه ملتبسًا، فمنهم من يتهمه

بأنه فعل فعلته وهرب بالبنت، ومنهم من يُكذِّب أو يقول: اللهُ أعلَم.

***

ومكثت أُمُّ الخيرِ وحدها..

والنسوة لا ينقطعن عنها، كَفَفْنَ عن فتح الجراح ولم يَعُدْن يقُلْنَ إلا ما يُرضيها، حتى سيرة حبشي لم يكُنَّ يتطرَّقن إليها، هي التي كانت تتذكَّره في حضورهن وتدخل في نوبةِ بكاءٍ شديدة، فيتعاطفن معها:

– وَحِّدي الله كده، وحدي الله دا انتي واحدة مؤمنة.

وهي بعباراتٍ مخنوقة:

– صعبانة عليه مُوتُّه، عمري ما هَنْسَاها..

تقرَّبْن منها بعد أن أصبحت لا حولَ لها ولا قوة، اقتربن شفقةً وباقتناعٍ في الوقت ذاته، كبُرت في أعينهن بعد أن استماتت في الدفاع عن ابنتها، كلهن مكسورات الجَناح مثلها وغلاوة البنات شديدة في قلوبهن مهما فعلن. وكن يَقُلْن لبعضهن البعض: ياما لاوعتنا وخبَّأت علينا لكننا عذرناها، فمن هذه التي تفضح ابنتها ولا تداري عليها..

لها في كل شهر سفريَّة تبدأ مع بكور أولِ يومِ جُمُعةٍ في الشهر العربي، تغيب يومين أو ثلاثة وتعود، لا يتركنها يوم السفر، تلبس جلبابها القطيفة الأسود وتلفُّ رأسها وصدرها بطرحة من نفس اللون، وفي يدها سَبَتٌ

مليءٌ بالطيور، ويأتين هُنَّ لها بركوبةٍ تمتطيها حتى موقف السيارات ومن هناك تبدأ مشوارها.

يعرفن أنها ذاهبةٌ لتعودَ ابنتها عزيزة، إلَّا أنهن لا يقُلْنَها صراحةَ يُلمحن فقط:

– مع السلامة وسلِّمِلْنا على اللي في البدرشين.

تفهم أنهن يفهمن فتشير لهن ضاحكة، وتتقرفص على الأرض بجوار النسوة المسافرات في انتظار المواصلة التي سوف تقلُّها. قهوةُ الأكتع في مرمى بصرها وبربع التفاتة تراها، إلا أنها تقاوم، تتحاشى النظر إليها بقدر ما تستطيع، وتتبرَّم من الباص الذي تأخَّر، فلولا الضرورةُ ما جاءت هنا أبدًا. أما الثلاثةُ العواجيز، وأبو سِنَّة بالذات، فكانوا على عكسها، المشاعر هي مشاعرها لكن التصرف مختلف، فإذا تصادف وكانت قهوةُ الأكتعِ في طريقهم، كانوا يتوقفون ويتأمَّلونها بنظرة طويلة ثم يمضون لحالِ سبيلِهم، وليس القصدُ الفُرْجةَ على الأكتع ولا قهوته، كانوا يسرحون بخيالهم فيما كان هنا من قبل.

***

ويلوحُ باصُ الحكومة..

تسرعُ إليه حاملةً سَبتَها، تُفضِّله عن باقي المواصلات، أرخص وأأمن،

فسائقو الأجرة إما من البلدة أو من نواحيها، تحذَر منهم، يصور لها خيالُها أن أحدَهم قد يتتبَّعُها بعد أن تهبط ويعرف وجهتها. لن تُمكِّنهم من هذا السر ولو قَطَّعوها، لا تخافُ من أهلِ البلدة، لا ضررَ منهم فلا ثأر ولا عداوات، خوفُها كُلُّه من دياب، فمن يدري! قد يدسُّ عليها واحدًا منهم أو ربما شخصًا آخر ليس في بالها؛ ولذا فهي تحتاط وأول ما تصل إلى (طنطا) تتلفَّت وراءها وأي شخص بجلباب بالقرب منها تضعُه في دائرة الشبهات.

لا تقف في الباص ولو كان مزدحمًا، عادةً ما يُخلِي لها أحد الرجال مكانَه فتضع السَّبَت بين قدمَيْها وتجلس، ومحظوظة فدائمًا ما تكونُ جلستُها بجوار النافذة، وأول ما تَتخطَّى السيارةُ زمامَ البلدةِ تفكُّ الطرحةَ قليلًا، تتركُها تتهدَّل على رأسها وكتفيها وتفتح زرارًا أو اثنين من ياقة الجلباب، الهواء القادم من النافذة ينعشُها، وإذا كان الجو حارًّا يجفف حَبَّاتِ العرَقِ التي حول عنقها ومنْحَرِها.

شيئًا فشيئًا يرمح الباصُ على طريقٍ من الإسفلت، فتزداد دَفْقاتُ الهواءِ الآتيةُ من النافذة وترفرف الطرحةُ فوق رأسها، تكاد تطير في الهواء، تُلملمها بسرعةٍ وتتلفَّت حولها خوفًا من أن يكون أحدٌ من الركاب لمح شعرها، لا يُهمُّها الأغراب، لن يروها أو تراهم مرةً أخرى، الخوفُ كله من أهلِ البلدة، فهذه عيبةٌ في حَقِّها. الحمدُ لله.. لا أحد.. الكلُّ نائم، عادتهم ولن تتغير، فكلما استقلوا مَرْكبةً بأربع عجلاتٍ يتثاءبون ثم تسقط رءُوسهم ولا يستطيعون بعدها السيطرة على أنفسهم، وهي تتمتع بالنظر

من النافذة، تعتبرها فسحة، طول النهار ما بين المقشَّةِ والفرن والكانون، وكلما ارتاحت لا ترحمها النسوة يوجعن رأسها بالثرثرة.

وتلوح طنطا، ومن هناك مواصلة ثانية إلى (بنها)، بنها ليست بعيدة على أية حال، والباصُ يمُرُّ في هذه اللحظِة في حَوَارٍ ضيقةٍ وبين بيوتٍ متلاصقةٍ ومحلَّاتٍ بحجم الكَفِّ أو ورش صغيرة، وعيال حُفاة أكثرهم بالسراويل الداخليَّة مثلهم مثل عيال الحارة التي تسكن فيها. المرة السابقة كان مدخل طنطا غير ذلك، طريق واسع وجوامع ومحلَّات كبيرة، ربما تغير السائق أو جاء بهم من طريق مُختصَر، يجوز! تمدُّ عنقها لتراه، تعرفهم كلهم، لا ترى سوى ظهره والبيريه الذي يغطي رأسه..

عزيزة وضاحي يسكنان في بيتٍ مثل هذه البيوت..

غلبان يشقَى طولَ النهار في مَحَلٍّ لعصير القصب، والبنتُ ملعونة، لا ترضَى بعيشتها، أعطتها نصف ثمن القهوة ولا فائدة، وكردانًا وخاتمًا وغويشة، كل مَصَاغها..

ماذا ستأخذُ بعد ذلك؟!

إن كانت تريدُ الحَلَق الذهب الذي في أُذنها فلتأخُذْه، وتضعُ هي بدلًا منه حلقًا من الصفيح.

ما الذي تفعله معها! بنت مجرمة.. عينها فارغة..

***

ليس هذا كل ما يؤلمُها..

المصيبةُ والداهية وخرابُ البيوت في الصورة التي وجدتَها في ضلفةِ دولابها، صورة (رمزي) ابن الحاجِّ فوزي تاجر الجِمال، دلُّوعة، على سبع بنات ويقفُ في الصورة متعاجبًا بالنظارة التي على عينيه، ملعون أبوك وكل صنفك يا وسخ يا بْن الوسخ..

والمزغودة كانت تُخفي الصورة أين؟ تحت ورقة الجورنال التي ترُصُّ عليها هدومها..

أهُوَ يا بنت الكلب ولم نكُنْ ندري! ولماذا لم تنطقي باسمه؟

أبوه رجلٌ طيب، كل الناس تقول ذلك، ولو عرف ساعتها ما كان يقبل بما فعله ابنه..

طيب، حَقَّاني، ليل ونهار في الجامع، فما الذي جاءنا من كل ذلك؟! ومن أدرانا إن كان سيقف في صَفِّنا أو صَفِّ المحروس ابنه؟

آه يا قليلةَ الأدب، حُبٌّ أم فُجْرُ هذا الذي فَعلتِهِ!

وماذا يُجدي الآن؟ ما الذي سوف نكسبه؟ يكفي الذي جرى، ففتح الموضوع من جديد فضيحةٌ لا أولَّ لها ولا آخر، كُنَّا في حفرة وسترها الله، ولو انفتح الكلام ثانيةً فسوف نقع في دُحْدِيرَة تكسر الرقبة..

أليس لهذه البنت عقلٌ، فما الذي كان سوف يحدث لو أن ضاحي رأى

هذه الصورة، أتستخفُّ به لهذه الدرجة! أم هي عبيطة أم ماذا؟ والله لو أنا منه لكنت قطعت رقبتها ورميتها في الشارع، ألَا يكفيه أنه قبلِها على نفسه وراهن على جاموسة وقيع!

قليلةُ الدينِ هي السببُ في موت أبيها..

لو نطقت يومها ما كان كل هذا حصل ولا حبشي مات، فحبشي ليس شُرَّابة خُرْج وكان قادرًا على إجبار الحاج فوزي على مداواة المشكلة.

وترتاحُ لهذا التحليل، تتشبَّث به..

فهي نفسها كانت تشعرُ بالذنب للمَوْتَةِ التي ماتها زوجها، ويا ما قالت لنفسها بأني لو كنت أخذته بالراحة، وشاورته واستأذنته في تهريب البنت ما كانت جاءته (النُّقطة) ولا مات! مات ميتة فطيس وأنا السبب.. لكن بعد أن رأت الصورة اتَّضحت الحقيقة، وانزاح الذنب من فوق صدرها، البنت هي التي قتلت أباها! والله هي السبب!

بنت أعوذ بالله..

تخشى من أن تفعل فعلةً جديدةً هنا في بنها، أو أن ابنَ الحاجِّ هباب هذا يعرفُ العنوانَ ويتردَّدُ عليها في غياب ضاحي، ساعتَها هي التي سوف تضع حدًّا لطيش هذه الوسخة، هي التي سوف تخنقُها بيديها.

وتُفاجأ أُمُّ الخير بكمساري الباص واقفًا على رأسها، نزع المنديل الذي

يحيط بياقته الميري ونفضه في وجهها بصوتٍ كالفرقعة، حسبها نائمةً وعيناها مفتوحتان، وهذا ليس غريبًا عليه، تردُ عليه يوميًّا أشكالٌ ما أنزل الله بها من سلطان، التي تنام وتفوت منها المحطة، والتي لا تعطيه الأجرة وتحلف بالله أنها أعطته وهو الذي نسي، والتي تصطحب معها عَيِّلًا كالشَّحْطِ وتقول له: عَيِّل يتيم وحبَّذا لو أعفيته من التذكرة، والتي.. والتي..

صاح فيها بغيظ:

– يا سِتّ ما تخلَّصِينا! في عرض النبي تخلصينا! الناس كلها نزلت بقالها نُصّ ساعة وانتي اللي قاعدة، راجعة معانا إن شاء الله!

– حاضر حاضر ياخُويَا.

وحملتِ السَّبَتَ وهبطتْ مسرعة، لم تتلفَّت وتُدقِّق مثل كل مرة في أصحاب الجلابيب الذين يمشون بالقرب منها، تلهوجت من هذا الكمساري الغِلِس وأسرعت إلى محطةِ القطارات، ستركب القشَّاش هذه المرة، تنتظرُ إلى أن يصل في زوبعةِ دخانٍ وصوتِ يَصمُّ الأذن، تصعد وتجلس في آخر عربة. العربةُ شبه خالية، هذا حالُها يوم الجمعة، لا مدارس ولا عمال ولا موظفون ذاهبون إلى أشغالهم، وكدأبها كل مرة تبتاعُ إصبعًا من العسليَّة وتستحلبه في فمها بتلذُّذ، طعمه أحلى بكثير من العسلية التي تُباع في دكان الشيخ سطوحي، من أين يأتي لهم بهذه الكُناسة!

لا يزالُ نصف ثمن القهوة معها، صَرَّته في منديلٍ وخبَّأته في مَطْرَح

ولا الجِنُّ ذاته يصلُ إليه، فكَّتِ الصُّرَّةَ اليومَ وسحبت منها خمسين جنيهًا، سوف تعطيها لضاحي في السِّرِّ ليبدأَ بها مشروعًا، أليسَ ابنَها هو الآخر وهي التي ربَّته.

هذا ما تقوله لنفسها، وإن كان هناك سببٌ آخر تحت الرُّكام يطلُّ برأسه ويختفي، تريد أن تطوِّقَ عنقَه بجميلٍ آخرَ غير جميلِ التربيةِ والرعاية، فمن يدري ما يُخبئه الزمن..

في المرة السابقة لا المرة التي قبلها، فاجأها قائلًا بأن "أبو سِنَّة" جاء وزارهم هنا في البيت، فبدًا عليها الانزعاج:

– وإيه اللي عرَّفه مَطْرَحكم؟

– أنا مِرَسِّيه على الدور كله.

– حرَّص يا ضاحي.

– إلا أبو سِنَّة، دا بيخاف علينا زَيِّك وأكتر.

– شوف اللئيم! لا قالِّي ولا فتح حنكه.

– أُمَّال. حويط.

– وجِهْ بهلاهيله؟ وحافي وللا لابس مَدَاس؟

– كان لابس جلَّابية مُكْن، هو خُرْم واحد اللي في الديل بس قصيَّرة عليه.

ويضيفُ بامتنان:

– وكان جايب معاه وِزَّة مدبوحة ومتنضَّفَة كمان!

– تلاقيها كانت تايهه ولقيها في الشارع.

– يا خالة حرام عليكي، دا بيقول إنه شاريها من أمّ صابر اللي بتقعُد في السوق.

ويضحكان..

تضحكُ هي الأخرى بلا صوتٍ وهي جالسةٌ في القشَّاش، وفي اللحظةِ نفسها تطوفُ في بالِها عَوْجَة العينِ والسخريةُ التي بدَت على وجهِ ابنتها من هذا العَبَط الذي كانا يتكلمان فيه، فتطفو سحابة حِنق على وجهها وكأنها تقول لنفسها:

حاضر يا عزيزة! حاضر! يا أنا يا أنتِ هذه المَرَّة..

وإن صَحَّت ظنوني أنا التي سوف تفعلُ ما لم يفعلْهُ دياب..

***

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية:

- **لقمة العيش**: مجموعة قصصية/ الطبعة الأولى، دار النسر الذهبي، سنة 1994/ الطبعة الثانية، دار النيل، سنة 2005/ الطبعة الثالثة، دار سفنكس، سنة 2011/ وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامي 1997، 1998.

- **قلوب منهكة**: رواية. الطبعة الأولى، دار النيل، سنة 2004/ الطبعة الثانية، دار سفنكس، سنة 2009/ وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة 2018، ضمن سلسلة (Hoopoe) الصادرة من الجامعة الأمريكية.

كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن (WELTEN) سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen–Der Muslimische Jude).

- **أيام الشتات**: رواية/ الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2008/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

- **أحلام العودة**: رواية/ الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2012/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان: (Menorahs and Minarets).
- **المليجي**: رواية/ الطبعة الأولى، دار سفنكس، 2014.
- **أيام لا تُنسى**: رواية/ الطبعة الأولى، دار العين، 2018.

ثانيًا: الأعمال القانونية:

- **السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي**: دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.
- **النظم السياسية والقانون الدستوري**: مطبوعات جامعية، سنة 2001.
- **القانون الإداري**: مطبوعات جامعية، سنة 2001.
- **المدخل للعلوم القانونية**: مطبوعات جامعية، سنة 2002.
- **الإدارة العامة**: مطبوعات جامعية، سنة 2002.
- **الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع في المواد المخدرة**: مطبوعات جامعية، سنة 1995.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف:

- **اللذة والمتعة/ قرأة في سرد كمال رُحيِّم**، دراسة للدكتور محمد علي سلامة: دار العين، سنة 2019.